تاريخ الحضارة (١)

في القرون الوسطى والقرون الحديثة

اصول الحضارة

الآثار قبل التاريخ — تجد في الارض احياناً دفائن من سلاح وادوات وعظام بشرية وبقايا من كل نوع تركها البشر ولا علم عنها بشيء ويستخرج منها الوف من الانواع في جميع ولايات فرنسا وسويسرا وانكلترا بل في اوربا كلها بل يستخرج مثلها من آسيا وافريقية ولاشك ان لها امثالاً في العالم كله · وتسمى هذه البقايا آثار قبل التاريخ لانها اقدم من التاريخ ومنذ نحو اربعين سنة اخذ العلماء يجمعونها ويدرسونها · ولمعظم المتاحف اليوم قاعة او على الاقل بعض بيوت من الزجاج مملوءة من هذه البقايا · وعلى مقربة من باريز في (سان جرمان ان لاي) متحف من قبل عهد التاريخ · وقد جمعت الدانيمرك وحدها ثلاثين الف قطعة من الآثار · وفي كل يوم يعثر على تحف اثناء الحفر وعند بناء بيت وحفر حفيرة لسكة حديدية ·

وهذه التحف لا ترى على سطح الارض بل هي مدفونة في الاعماق وفي اماكن لم تنبش تربتها وهي مغشاة بطبقة من الحصباء والطين الذي تراكم شيئاً فشيئاً فوقها وحفظها بمأمن من الهواء وهو ما يؤكد كل التأكيد بان تلك الدفائن هناك منذ زمن بعيد ·

علم ما قبل التاريخ — فحص العلماء هذه الآثار فتساءلوا عمن خلفها لنا وحاولوا ان يعرفوا من عظامها وادواتها كيف نشأت وكيف كانت تعيش فاعتبروا ان هذه الادوات تشبه ما يستعمله بعض المتوحشين الى اليوم · ومن درس هذه التحف نشأ علم جديد(٢) سموه علم الآثار قبل زمن التاريخ

العصور الاربعة — حدثت بقايا الآثار قبل زمن التاريخ من اجناس من البشر متنوعة كثيراً فبقيت في الارض ادواراً متطاولة جداً منذ زمن كان يعيش فيه في بلادنا الماموت وهو نوع من الفيل العظيم له جلد كثير الوبر وانياب محددة · ونقسم هذه السلسلة من القرون الى اربعة ازمان تسمى عصوراً

---

(١) معرب من كتاب شارل سينيوبوس من مؤرخي فرنسا (٢) وضع هذا العلم علماء من الفرنسيس والسويسريين والانكليزيين ·

فالاول عصر الحجر المنحوت والثاني عصر الحجر الصقيل والثالث عصر النحاس والرابع عصر الحديد . سميت هكذا بسبب الادوات التي كانوا يصنعونها من الحجر والنحاس او الحديد . على ان هذه الازمان تختلف طولاً وقصراً وربما دام عصر الحجر المنحوت مدة تضعف عصر الحديد

عصر الحجر

بقايا الحصباء — اقدم الاطلال التي عثر عليها كانت مدفونة في الحصباء . وقد عثر احد علماء فرنسا المسيو بوشه دوبرت (من سنة ١٨٤١ الى سنة ١٨٥٣) في وادي السوم بادوات قاطعة من الصوان . كانت مطمورة في عمق ستة امتار في الحصباء في ثلاث طبقات من ارض حمراء وحصى وكلس مختلطة بالطين كما رسب . كما عثروا في نفس تلك الاماكن على عظام بقر وأيائل بائدة . وظل الناس يهزأون زمناً بهذه الاكتشافات وكانوا يقولون ان هذا الصوان قد نحت صدفة بلا عامل حتى اذا كانت سنة ١٨٦٠ جاء عدة من العلماء فقصد الى وادي السوم وعرفوا بان هذا الصوان قد نحتته يد البشر لا مراء . ومنذ ذلك العهد عثروا على زهاء خمسة آلاف قطعة تشبه تلك في طبقات من هذا الجنس نفسه وذلك في وادي السين وفي انكلترا وكان بجانب بعض تلك الآثار بقايا عظام بشرية . ولا يختلف اثنان اليوم في انه كان بشر في العالم في الزمن الذي تألفت فيه تربة طبقات الحصباء . واذا كانت الطبقات التي تغشى هذه الاطلال قد تألفت بالبطء الذي تتألف به لعهدنا هذا فان البشر الذي وجدت عظامهم وادواتهم قد عاشوا قبل زهاء مئتي الف سنة .

رمال الكهوف — واطلع الباحثون على اطلال في الكهوف محفورة في الصخر لكون الجبال قائمة فوق نهر واشهرها مغارات شواطئ نهر الفيزير (احد انهار فرنسا) ويكثر امثالها في كثير من الاماكن اتخذت قديماً مساكن للناس واحياناً قبوراً لهم . فتجد فيها هياكل عظامهم واسلحتهم وادواتهم وهي عبارة عن فؤوس وسكاكين والازاميل واسنة رماح من الصوان وسهام وشفار كلاليب وابر من العظام مثل ما كان يستعملها بعض المتوحشين وقد عثرت على التربة عظام الحيوانات فكان اولئك الناس القدمون كسائر المتوحشين يلقون بها في زواياهم بعد ان اكلوا الحيوان وقد يشقون عظامه ليستخرجوا منها النخاع على ما يفعل اليوم المتوحشون . ولست ترى بين تلك الوحوش الارنب والايل والبقر والحصان وحوت سليمان بل تجد بينها ايضاً الكركدن ودب

الكهوف والماموت والوعل وبقر السهل وجميع ضروب الوحوش المنقرض نسلها من فرنسا منذ زمن طويل · ولقد عثر ايضاً على بعض الصور المنقوشة على عظام الوعل او على اسنان الماموت تمثل احداها قتال وعول والثانية حيوان الماموت اي فيلاً هائلاً ذا جلد له وبر كالصوف وانياب معقفة

لاجرم ان هؤلاء الناس كانوا معاصرين لذلك الفيل والوعل فكانوا كجنس الاسكيمو (سكان القطب في اميركا) في عهدنا هذا قوم دأبهم الصيد والقنص يحسنون صنع الصوان وايقاد النيران

المساكن — انخفضت المياه في بحيرة زوريخ (سويسرا) سنة ١٨٥٤ عقيب ما حدث من الجفاف في صيف تلك السنة فاكتشف سكان الشواطئ اوتاداً غرزت في الماء وهي بالية جداً وماعوناً غليظاً غير محكم وكانت هذه بقايا قرية قديمة بنيت على الماء · ثم عثر على زهاء مائتي قرية تشبهها في بحيرات سويسرا ويدعونها القرى او المدن المبنية على اوتاد في شواطئ البحيرات · اما الاوتاد التي قامت عليها تلك المساكن فجذوعات من جذوع الاشجار غرزت من اطرافها في البحيرة على عمق عدة امتار ويقتضي لانشاء كل قرية من ثلاثين الى اربعين الف جذع تحمل سطحاً من الخشب اقيمت عليه بيوت من خشب مغشى بالطين · ويستدل مما عثر عليه من مئات من الامتعة في وسط تلك الاوتاد على العيشة التي كان السكان يعيشونها فقد كانوا يأكلون من الحيوانات التي يصيدونها الايل والوعل والخنزير البري على حين كانوا يعرفون من قبل الحيوانات الاهلية كالبقر والعنز والخيل والكلب ويحسنون زرع الارض وحصاد الغلة وطحن الحب لانه وجد في الاطلال قرام حب الحنطة بل خبز (وبعبارة أخرى معجنات بدون خمير) وكانوا ينسجون الاقمشة الغليظة من القنب ويعملون الثياب وقد عثر على ابر من عظام وكانوا يصقلون الاحجار على صورة ليس فيها شيء من المهارة وترى آنيتهم لا اثر للدقة فيها بل هي معمولة باليد ومزدانة ببعض خطوط فقط وكانوا يصنعون السكاكين والسهام من حجر الصوان مثل سكان الغيران ولكنهم يصنعون فؤوسهم من حجر صلب للغاية تعلموا صقله · ولذلك دعي عصرهم بعصر الحجر الصقيل وهؤلاء السكان احدث عهداً من سكان الغيران لانهم لم يعرفوا فيل الماموت ولا الكركدن وان كانوا عرفوا الوعل والايل في ارض فرنسا ·

الصنائع او الآنية — تسمى الآنية المصنوعة من ضخم الثقيف من الاحجار غير

المصنوعة الابنية الميكاليتية اي الحجارة الضخمة وتكون الحجر فيها تارة في حالة واخرى [illegible] بالعين . والمصانع التي يرى فيها الحجر [illegible] «الدولمن» وهو منضدة من الحجر مؤلفة من حجر مستطيل موضوع على عدة احجار مغروزة في الارض و«الكروملش» وهي دائرة من الحجر مؤلفة من صخور كبيرة مصفوفة على صورة اطار ومنها «المنهير»[١] وهو حجر طويل مؤلف من قطعة واحدة قائم على طرفها وكثيراً ما تكون عدة من المناهير مصفوفة صفاً واحداً . ولا تزال في الكرنك من اقليم بريتانيا اربعة آلاف من هذه البناءات القائمة على احد عشر صفاً . ويذهبون الى انه كان قديماً عشرة آلاف واحد . [illegible] واحد في ذلك المكان . وتلك الشواهد الابنية الميكاليتية في فرنسا باقيات في ولايات الغرب ولا سيما في اقليم بريتانيا وتجد في انكلترا مثلها على معظم الآكام ومنها [illegible] الى نهاية [illegible] في جزائر اوركاد .

وتسمى المصانع المدفونة التوموليوس وهي شبه اكمة من بعد واذا فتحت يجد المرء في داخلها غرفة من الحجر وكثيراً ما تكون مبلطة بألواح من الصخر . وترى منها في بلاد الدانيمرك والمانيا الشرقية مصانع منثورة ويسمي اهالي تلك البلاد تلك المصانع المدفونة قبور الجبابرة .

والمصانع الميكاليتية كثيرة خارج اوربا وفي الهند وعلى الشاطئ الافريقية . ولا نعلم اي الشعوب استطاعت استخراج مثل هذا الثقيل ونقله وقد جاء زمن طويل كانوا يظنون فيه ان قدماء الغاليين والسلتيين هم الذين عنوا باستخراجها ونقلها ومن هنا جاء اسم المصانع السلتية ولكن ذلك مردود بما ثبت وجود مثل هذه المصانع في افريقية والهند .

واذا فتحت بعض هذه المصانع المدفونة غير الممسوسة تجد فيها كل حين هيكل عظام وكثيراً ما يكون عدة هياكل وهي اما جالسة او مضطجعة فهذه المصانع عبارة عن قبور فتجد بالقرب من الميت اسلحة وآنية والحلى . وبحسب قدم هذه القبور ترى الاسلحة عبارة عن فؤوس من الحجر المصقول والحلى هي اصداف ولآلئ وعقود من عظام ومن عاج والآنية بسيطة الصنع بدون عروة ولا عنق بل هي مزدانة بخطوط او بنقط

---

[١] سميت جميع هذه المصانع باسماء سلتية لان العلماء درسوها اولاً في بلاد السلت .

وترى فيها عظام حيوانات مقطعة على ارض متكلسة وهي بقايا طعام قدم في جنازة الميت قدمه احباؤه الى قبره . وليس بين هذه العظام اثر لعظم الوعل وهذا ما يستدل منه على ان هذه المصانع بنيت حينما اندثر جنس الوعل من اقطار اسج بعد زمن القرى المبنية في البحيرات

قرن المعادن

القلز (النحاس الذي لا يمازجه الحديد) استعمل البشر المعادن منذ عرفوا اداتها ليصنعوا بها اسلحتهم مفضلين اياها على الحجر . فاول معدن شاع الاستعمال هو النحاس لسهولة استخراجه لان منه الصافي السهل على التطريق اذ يمكن تطريقه بارداً ولكن لم يستعمل النحاس الخالص ومنه تصنع اسلحة سريعة العطب قابلة للتفليل . ولذلك مزجوه ١٠٪ من القصدير ليزيد صلابة وهذا المزيج من النحاس والشبه هو الذي يسمونه القلز .

ادوات البرونز — صنعوا من القلز ادوات العمل (كالمدى والمطارق والمناشير والابر والصنانير) وادوات الزينة (أساور وسلاسل وقلائد واقراط) وصنعوا منها اسلحة بوجه مخصوص (مثل الخناجر ونصال الرماح والفؤوس والسيوف) ويوجد من هذه المصنوعات في قارة اوربا عامة في المصانع المدفونة وفي مقابر الرخام dolmen الحديثة وفي معادن الحجر المشتمل tourbière ببلاد الدانيمرك وفي مدافن الحجر وكثيراً ما يكتشف بالقرب من هذه المصنوعات من البرونز ادوات من الزينة من ذهب واحياناً بقايا ثوب من الصوف . ولا يتأتى ان تكون جميع أدوات البرونز متشابهة بالعرض ومعمولة من مزيج معين . لا حرم ان تاريخها يرد الى عهد واحد وهو متقدم على وصول الرومان الى غاليا اذ لم يعثر بها قط في جانب الآثار الرومانية والى اليوم لم يعرف من كان يستعملها .

قرن الحديد — لما كان الحديد اصعب على التطريق واقسى على العمل من البرونز لم يعرف استعماله الا مؤخراً . واذ كان اكثر صلابة لم يستعمل غيره للسلاح منذ عرف . وكان الحديد على عهد هوميروس لبلاد اليونان معدناً ثميناً يدخرونه لصنع السيوف ويفضلون القلز لسائر الاستعمالات ولذلك نرى كثيراً من القبور تحوي اشياء من القلز واسلحة من الحديد كيفما اتفق

وهذه الاسلحة هي فؤوس وسيوف واقواس ودروع ويوجدونها في العادة بالقرب

من هيكل عظام وفي قبر حجر او خشب لان المحاربين كانوا يدفنون مع اسلحتهم ويعثر منها في ساحة الحروب مغروزة او ضائعة في قعر حوض من الحجر وقد اكتشف في احد هذه الاحواض في شتروبك ١٠٠ سيف و ٥٠٠ رمح و٣٠ فأساً و٤٦٠ سهماً و٨٠ مدية و٤٠ منجلاً وكلها من الحديد وفي مقربة من ذلك المكان في مجرى بحيرة قديمة رأوا مركباً عظيماً طوله ٧٠ قدماً محملاً كله من الخزف والسيوف والنصال والمدى والاشياء المعمولة من الحديد التي يعثر عليها على هذه الصورة كثيرة لا تحصى واقل منها من مصنوعات البرونز لان الصدأ يأكل الحديد بسرعة فتراها لاول وهلة اكثر قلة ولكنها في الحقيقة اكثر جدة

عرف سكان شمالي اوربا الحديد قبل دخول الرومان اي في القرن الاول ب.م. وقد اكتشف في مقبرة قديمة بالقرب من مناجم الملح في هلشتات من بلاد النمسا ٩٨٠ قبراً تحتوي على ادوات من الحديد والبرونز ولم يعثروا معها بقطعة من النقود الرومانية ويقدم قرن الحديد الى عهد الرومانيين. ولكن المصنوعات الحديدية يعثر عليها مع ادوات الزينة الذهبية والفضية والاواني الخزفية الرومانية ونواويس وكتابات ونقود رومانية تمثل صور الاباطرة. والمحاربون الذين تراهم مضطجعين بالقرب من سيوفهم ودروعهم كانوا في الاكثر الى عهد قريب منا وكان كثير منهم على عهد الميروفنجيين وبعضهم ايضاً على عهد شارلمان. فليس القرن الحديدي اذاً من القرون التي تعد قبل زمن التاريخ.

الخلاصة

ماذا يراد من القرون الاربعة — استعمل سكان البلد الواحد الاحجار المنحوتة فالاحجار المصقولة فالنحاس فالحديد ولكن البلاد كلها لم تكن تستعمل في القرن الواحد المعدن الواحد فالمصريون استخدموا الحديد في حين كان اليونان يستعملون النحاس وبرابرة الدانيمرك ظلوا على استعمال الحجر ولم ينته عصر الحجر المصقول في اميركا الا عندما وصل اليها الاوربيون وظل المتوحشون من اهل اوستراليا الى ايامنا هذه في عصر الحجر النحيت ولا يوجد في منازل عسكرهم سوى ادوات من العظام وقد حاكت شبيه ما كان يستعمله سكان الغيران فليس العصور الاربعة اذاً ادواراً في حياة الانسانية بل في حياة كل مملكة على حدتها فقط

شكوك — مطرح علم الآثار قبل التاريخ من العلوم الحديثة النشأة وما نراه من

البشر الاولين تعلمناه من بقايا حفظت بالعرض ووجدت كذلك وعلى ذلك وقد تؤدي صدمة جديدة وحفيرة او خندق وانهيار ارض وجفاف مطر الى اكتشاف جديد . ومن يعرف ماهو مدفون في بطن الارض حتى الآن لان ماعثر عليه من المدفونات حتى اليوم من الاشياء لا يقع تحت الحصر ولكن اقل قيمتها ونريد ان نعرفه . فكم من زمن دام كل عصر من العصور الاربعة ؟ ومتى بدأ وانتهى في البلدان المختلفة في العالم ؟ ومن اي الشعوب اتت صور الغيران والكهوف والقرى وسط البحيرات والمقابر المدفونة في القلائد الحجرية ؟ وعندما تنقل مملكة من عصر الحجر المصقول الى النحاس يكون الشعب نفسه قد غير ادواته او خلفه شعب آخر ؟ وعند ما يعتقد بعضهم انه خطأ وجواب على ذلك يحدث اكتشاف جديد يكذب علماء الآثار فقد كان يظن ان القلائد الحجرية جاءت من السلتيين فوجدوا منها في محال لم يستطع السلتيون ان يجاوزوها

مسائل محلولة — ومع هذا فان ثلاث مسائل يظهر انها محلولة (١ً) الانسان هو قديم على الارض لانه عرف المموت ودب الكهوف فكان يعيش على الاقل خلال العصر الذي يقال له العصر الرباعي (٢ً) انتقل الانسان من حالة الهمجية حتى وصل الى المدنية وحسن بالتدريج آلاته وادوات زينته من الفأس الحقير المعمول من الصوان والعقد المؤلف من اسنان الدببة الى سيوف الحديد وحلى الذهب وذلك لان الادوات المتقنة كثيراً هي ايضاً عريقة في القدم (٣ً) تقدم الانسان تقدماً سريعاً وكان كل عصر اقصر مما سبقه

غاليا

شعوب غاليا القديمة — كانت البلاد التي يسكنها (الفرنسويون) تدعى قديماً بلاد غاليا ويريدون بهذا الاسم جميع الصقع الممتد من جبال البيرنيه الى الالب والرين فالبحر وهذه البلاد الواسعة لم تكن مملكة واحدة بل كانت تنقسم بين مئة من الشعوب الصغيرة على الاقل ولكل منها حكومته وجيشه يحارب بعضها بعضاً

وهذه الشعوب مؤلفة من ثلاثة عناصر مختلفة

(١ً) كان الايبريون وهم من نفس عنصر سكان اسبانيا يسكنون في الجنوب في البلاد الواقعة بين جبال البيرنيه ونهر الغارون بلغة لاتشبه بوجه من الوجوه اللغات التي يتكلم بها في اوربا ولا تزال يتكلم بها الى الآن الباسك في البيرنيه

(٢) الكلت السلتيون في الوسط أي من نهر الغارون إلى نهر المارن ومن عنصر سكان [illegible] والمهم [illegible] اللغة التي يتكلم بها أهالي إيرلاندا وبلاد الغال وبريطانيا

(٣) في الشمال أي من نهر المارن إلى نهر الرين الشعب البلجيكي الذي كان يعد من السلتيين والأكثر من [illegible] أي من جنس الشعوب التي تسكن ألمانيا

لم يكن في هاته الأمم وحدة في الجنس ولا وحدة في اللغة

ديانة الغاليين — كانت ديانة الشعوب الغالية شبيهة بديانة اليونان والرومان فيعبدون [illegible] ولكن لا نعرف [illegible] الأرباب ولكننا نعرف [illegible] وهي رب الشمس [illegible] يقودهم في سلاسل ذهب [illegible] ويعتقدون [illegible] ويعبدون [illegible] وكانوا يقدمون [illegible] للأرباب [illegible] الحكومة [illegible] بالأصنام [illegible] وكان [illegible] الناس [illegible] وهم الدرويديون يختارون عادة من [illegible] الأسر الشريفة [illegible] وكان الدرويديون [illegible] دينية [illegible] الشعب [illegible] الذهبي ولا [illegible] خلود الروح وكانوا [illegible] يستعملونها في الأعمال السحرية لأنهم كانوا كهنة وأطباء وسحرة وقضاة في آن واحد وكانوا يعدون أن [illegible] النباتات [illegible] دينية ولاسيما دبق [illegible] البلوط وهو النبات [illegible] الأمراض فكانوا يجمعونه باحتفال حافل [illegible] من ذهب في اليوم السادس من [illegible]

أخلاق الغاليين وعاداتهم — كانت الشعوب الغالية في القرن الأول من التاريخ المسيحي [illegible] يعيشون [illegible] كما يعيش اليونان قبل هوميروس أو الرومان في أوائل أمرهم. كانت البلاد [illegible] غابات واسعة [illegible] والأدغال والآجام [illegible] ولم يكن [illegible] من طرق سوى [illegible] ولم تكن البيوت سوى أكواخ [illegible] لا نوافذ لها ولا مداخن [illegible] حتى إنه لم يكن عند الأغنياء الغاليين أثاث ولا فرش بل كانوا يجلسون على [illegible] ولم يكن لهم مدن [illegible] لفظ مدينة [illegible] وأهلها القوم

ويقضون ايام الحروب وهناك كانت تقام الاسواق وتعقد مجتمعات المحاربين والاشراف .

ولم يكن سكان البلاد متساوين فيما بينهم فكان الفلاحون طبقة دنيئة والمحاربون الذين يقاتلون على خيولهم هم طبقة الاشراف وهؤلاء وحدهم هم الحكام وكان لبعض الشعوب زعيم سام اي ملك ولفظ ريكس الغالية التي توجد في آخر عدة من اسماء رؤسائهم مثل امبيوريكس بوايوريكس وفرسنجيتوريكس وغير ذلك هي نفس اللفظ اللاتيني ريكس

وكان المحاربون يتسلحون برمح له سنان من الفولاذ وسيف ثقيل من الحديد ويلبسون خوذة وترساً من الخشب ولم يكونوا يلبسون الدروع . ويفوق الغاليون اليونان والرومان من جهة واحدة فقط وهو ان ثيابهم كانت اكثر ملاءمة واحسن صوناً للتوقي من البرد . فبدلاً من ان يلبسوا مثلهم ثياباً طويلة تترك صاحبها وتترك ساقيه عريانتين وتجعل تنكشفان رجليه كانوا يلبسون نوعاً من السراويل (البري) ومشلحاً وضرباً من ضروب الاردية (السي) اشبه شيء بما يلبسه الجبليون من اهل ايكوسيا واحذية تسمى كاليكا اي الغالية ومنها جاءت لفظة « كالوش » الفرنسوية واقتبس الرومانيون تلك السراويل الغالية

غاليا الرومانية

كيف اصبحت غاليا رومانية — استوطن الرومان بادئ بدء الشطر الجنوبي من غاليا في جوار ايطاليا حيث طاب لهم الهواء واطلق على البلاد من جبال البيرينيه الى جبال الالب اسم بروفانس اي ولاية (وفي اسم بروفانس يطلق على القسم الشرقي من شرقي نهر الرون) ثم لم يمض زمن طويل حتى اشبهت بلاد ايطاليا ولما افتتح قيصر بقية بلاد غاليا خف سكانها الى التخلي عن عاداتهم واقتباس عادات الرومان فغادروا القرى ونزلوا المدن حيث انشأوا معابد ودور تمثيل وحمامات وبيوتاً من رخام مفروشة بالفسيفساء على نحو ما اعتاد اغنياء الرومان

وحذا السكان حذو الاشراف فتركوا بالتدريج حتى لغتهم واخذوا يتكلمون باللاتينية ومن اللاتينية التي تكلم بها العامة في المملكة الرومانية نشأت اللغات الرومانية كالفرنسوية والايطالية والاسبانية ويكاد لا يبقى في الافرنسية سوى كلمات طفيفة من اللغة الغالية مثل « بك » منقار « كوك » ديك « اليوت » قبرة « مارن » تراب كلسي

تروج بصلصال « دون » كليب « ليو » ورمح

نظام غاليا — لم تدمر الشعوب العصرية القديمة التي كانت الغالة غاليا بل تألفت من كل واحد منها مدينة سميت باسم سكانها مثل سواسون تريف ليموج باريز . وكما انشئت مدن جديدة تضاف الى ما انشئ من الرومانيين قبلاً . والقسمت عدة مدن فألفت منها ولاية وكان لكل ولاية حاكم ينوب عن الامبراطور وله سلطة مطلقة بالملة ويقضي بين الناس ويبت المسائل ويبلغ المدن اوامر الامبراطور وكان الوالي في الولايات الواقعة على الحدود حيث يرابط قليل من الجيش دائماً هو القائد

وما قط كان سكان غاليا رعية في أنفسهم امة خارجة عن بقية المملكة حتى ان اهالي الغوالي يعتبرون انفسهم رومانيين فيطيعون الامبراطور وحكامه عن رضى ولذلك لم يكن الامبراطور في حاجة ان يضم شملهم تحت رايته بالقوة كما يجمع شمل الشعب المغلوب على امره . وكان له جيش ولكن على التخوم فقط للدفاع عن الغاليين من غزوات برابرة الجرمانيين لا لاكراههم على الخضوع . ولم يكن في تلك البلاد الواسعة التي هي اكبر من فرنسا الحديثة من الجنود الا حرس الولاة يبلغ عددهم على الجملة ثلاثة آلاف رجل .

اصول المجالس البلدية في غاليا — ظل صغار الشعوب في غاليا يديرون أمور انفسهم بانفسهم وكان للامبراطور التدخل في مسائلهم الداخلية ولكنه لا يستعمل في العادة استعمال حقوقه بل يطلب اليهم فقط ان لا يحارب بعضهم بعضاً وان يؤدوا المطلوب منهم للحكومة في اوقاته وان يحضروا امام محكمة الوالي وكان في كل ولاية عدة حكومات صغرى مأمورة وتدعى كما كانت قديماً في المملكة الرومانية مدناً او بلديات . فالمدينة على عهد الامبراطورية الرومانية كانت على مثال المدينة الرومانية نفسها فيها مجلس عامتها وعمال ينتخبون كل سنة ، يقسمون اقساماً كل قسم مؤلف من عضوين ومجلس الشيوخ يتألف من كبار ارباب الاملاك اي من الاشراف والأسرات القديمة وكان حال مجلس العامة او الامة كما هو الحال في رومية صورياً ومجلس الشيوخ اي الاشراف هم الحكام حقيقة اما وسط المدينة فهو مدينة صرفة على الدوام اي رومية مصغرة ولها معابدها وأقواس نصرها وحماماتها العامة وعيونها ومسارحها وميادين قتالها والحياة فيها صورة من حياة رومية مصغرة من حيث توزيع الحنطة والدراهم والمآدب العامة والحفلات الدينية الكبرى والالعاب الدموية . الا ان دراهم الولايات في رومية

حتى الى تؤدي النفقات اما في المدن فان الاشراف انفسهم يقومون بالنفقات اللازمة للحكومة والاحياء .

وكان الخراج الذي يجبى لحساب الامبراطور يذهب اليه برمته ولذلك اقتضى ان يقوم الاغنياء على نفقتهم بالاحتفال بالالعاب واحياء الحمامات وتبليط الشوارع وانشاء الجسور والمجاري والملاعب . فقاموا بكل ذلك مدة قرنين وبذلوا عن سعة في اقامة المصانع الفخمة في ارض المملكة والوف من الكتابات المأثورة على الاحجار شاهدة بذلك ابد الدهر

كان بين جبال البيرنيه ونهر الرين نحو مئة وعشر مدائن ولم تكن كوراً مادية على نحو ما يومئ نظام المجالس القديمة فيها بل انه كان تحيطها ارض مساوية لولاية او ابرشية وهكذا كنت تجد بين نهري اللوار والسين مدن سانس وسواسون واورليان وكانت باريز ولوبيون وشالنس وبوفي ولاون وسواسون واميين فقط حواضر مدن وكانت المدن في اقليم البروفانس حيث نزل الرومان منذ عهد متطاول اكثر ازدحاماً وكنت ترى في اقليم فوكليس ودروم فقط مدن افينيون وكاربنتراس واورانج وكافايون وفيزون وسان بولس ودي وفالانس . وفي ذلك الصقع حفظت اجمل المصانع ففي مدينة نيم ترى الملاعب والمعبد المسمى البيت المربع والقناة المسماة جسر الحرس وفي مدينة آرلس الملاعب وفي مدينة اورانج المسرح وقوس النصر وكان جميع المدن كان لها مصانع من هذا النوع . وقد عثروا في باريز اصغر مدن الغاليين على حمامات حارة وحمامات ممدية بالقرب من دار كلونيه وعلى ملاعب في شارع مونج . وما من متحف الا وترى فيه محفوظاً الى اليوم بعض بقايا المعابد والمجاري والفسيفساء وقبوراً رومانية

اسباب الغارة

الجرمان — كان يسكن وراء نهري الرين والدانوب (الطونة) في البلاد التي تتألف منها اليوم المانيا شعوب غير متمدنة كان الرومان يدعونهم الجرمانيين وكانوا كالهنود والفرس واليونان والرومان شعوباً من عنصر آري نزحت في القديم من قارة آسيا وهم شعوب من الرعاة صاروا حراثين وشعوباً محاربين وكانوا ينقسمون الى عدة قبائل (نحو اربعين) تحكم كل واحدة نفسها منفصلة عن الاخرى وكثيراً ما كانوا يناوشون بعضهم بعضاً الحرب

وكان معظم الالمانيين من الجرمانيين لايحبون الا الحرب ويقول تاسيت انهم كانوا كلما انقطعت شأفة الحروب من بينهم يقضون اوقاتهم في الصيد ويتخلون عن كل عمل الا النوم والاكل . وكان اشجعهم واكثرهم شدة في القتال لايتعاطون عملاً يتركون العناية ببيوتهم وحقولهم للنساء والشيوخ والضعفاء وهم يعيشون كالمقعدين . وكان في كل شعب كثير من الناس جعلوا الحرب والغارة صناعتهم يجتمعون حول محارب شريف او مشهور ويتعاقدون بان يخلصوا له الخدمة وعلى هذه الصورة تتألف عصابة من الاصحاب عظمة زعيم يعيشون في داره ويأكلون في مائدته يتبعونه ايام الحرب ويفادون بارواحهم في سبيل الدفاع عنه . وكانت تشتد حاجة هذه العصابة الى الحرب فالرفاق ينبوا عن هذه الحياة المقصورة على الاكل والبطالة والرئيس ليقوم باود رجاله وطالما يسود السلام في الشعب تنصرف عصابات المحاربين للقتال مع زعمائها في جيش احد الشعوب او يحاربون في حسابهم وكانت الامبراطورية الرومانية تستخدمهم للقيام بهذه الاعمال فبعضهم يهاجمون في ولايات الحدود ويجوبونها وآخرون يدخلون في خدمة الرومانيين يقاتلون المهاجمين من البرابرة وكثيراً ما يعودون مستمتعين برواتبهم او غنائمهم ولكن كانت للكثير منهم صفة التشرد فلا يكادون يرجعون الى مساقط رؤوسهم . وقد ادى هذا النظام الى فناء جميع القبائل النازلة في القسم الاعظم ثلاثة قرون الا وقد دالت العصابات الرحالة ولم يبق شيء من حالات الشعوب حتى اذا جاء القرن الثالث ظهرت محالفات تحت اسماء جديدة ليست اسماء شعوب وهي ثلاثة الالمان في الشمال الذي يتألف من نهر الرين والدانوب الاعلى والفرنك في المجرى الادنى من نهر الرين والسكسون على طول بحر الشمال وكان لكل جماعة من تلك الجماعات الصغرى التي تكون منها تلك المعاهدات زعيم يسمى ملكاً ويحارب في العادة على نفقته .

انحطاط السكان في الامبراطورية الرومانية — جرى اذ ذاك في الامبراطورية الرومانية مثل ماجرى في جميع المجتمعات القديمة كاسبارطة ويونان وايطاليا اي انه قل عدد السكان واضمحل الاحرار وحتى العبيد ولم يكن هذا الشعب من العبيد خلا من الفقر بل كان اذا حدث كائن من الكوائن التي يكثر حدوثها في ذلك العهد من وباء وحرب وغارة يقضي زراع ذلك الصقع فتظل الارض غير مأهولة ولم تلبث القرى على التدريج ولا سيما من جهة التخوم ان فرغت من الرجال ولم يبق سكان الا

في المدن واصبحت عدة اصقاع أشبه بالقفار منها بالارياف

وبعد ان اجتازت بالبلاد جيوش المخربين المطلقين في القرن الخامس (امثال راداكيز واتيلا) احدث في البلاد فراغ استحال على الامبراطورية ان يملأه ففي بلاد الغال واسبانيا وايطاليا بل في بلاد الغرب اجمع بار شطر كبير من الاراضي لقلة اليد العاملة واصبحت الولايات الواقعة على التخوم مقفرة ولم يبق في كل البلاد التي يسقيها نهر الدانوب من سويسرا الى البلقان ولا مدينة رومانية واحدة واضمحل السكان حتى انه منذ القرن الرابع لم يبق في جميع هذه البلاد الا شعوب جرمانية او سلافية وهكذا الحال في البلجيك لم يجد الفرنك فيها غير القفر

انحطاط الجيش الروماني — دعت هذه البلاد المقفرة الناس الى سكناها فكان البرابرة يحاولون على الدوام ان يدخلوها وكان من السهل على الحكومة الرومانية ان تدفعهم عن البلاد كلما كان لها جيش في الجملة ولكن آلت الحال في قلة الجند كما صارت في قلة المال بحيث كان من الصعب ابداً تجنيد العدد اللازم فاعتاد السكان عيش الدعة ولم يعودوا يرضون ان يقاتلوا بانفسهم في الجيش فاضطرت الحكومة ان تطلب جنداً من كبار ارباب الاملاك وهؤلاء يسوقون بعض الزارعين (المستعمرين) في اراضيهم فيأخذونهم بالقوة من وراء سكتهم ومحاريثهم فلا يكون منهم الا جند سيء النظام فقد أصبح المجندون في القرن الرابع من الضعف بحيث لا يستطيعون لبس الدرع واخذوا يعتاضون عن الخوذة بالقبعة

ولما كان القواد يؤثرون ان يستخدموا محاربين من البرابرة لانهم يقاتلون في ساحة الوغى مستميتين وكان في الامبراطورية منذ عهد طويل جنود من الجرمان في خدمة الامبراطورية وفي آخر القرن الرابع اخذ الرومان يجندون عصابات برمتها يجعلونهم مع نسائهم واولادهم وخدمهم في اراضي يعطونهم اياها ليأخذوا منها أرزاقهم وعلوفاتهم وهؤلاء المحاربون الذين نزلوا في البلاد الرومانية كانوا يحتفظون بلسانهم وعاداتهم واصول حروبهم وزعمائهم ولكنهم يحاربون في الجيش الروماني ويدعونهم الاحلاف او المحالفين وجاء القرن الخامس فلم يكن منهم عصابات فقط بل شعوب برأسها مثل الويزغوت والبورغوند فاجتازوا الحدود بالقوة احياناً فبدلاً من ان يقاتلوا الامبراطور آثروا ان يكونوا في خدمته . فتألفت اذ ذاك جيوش رومانية من شعوب بربرية يقودها قواد منهم فقد رأينا الجيش الروماني الذي رد غارات اتيلا سنة ٤٥١

مؤلفاً من الويزيقوت والفرنك والبورغوند وآيتيوس القائد الروماني هو في الاصل كأتيلا نفسه

اخلاق الغارة — كان في الامبراطورية الرومانية أراض كثيرة وجند قليل ولما كان البرابرة كلهم رجال حرب ويريدون ان يتملكوا اراضي اخذوا يتملكونها تارة بقوة والعداء واخرى مقابل خدمة وفي صورة محالفين ودخول البرابرة الى الامبراطورية هو الذي نسميه غارة البربر (ويطلق الالمان عليه هجرة الشعوب) وهذه الغارة لم تحدث دفعة واحدة بل وصل الجرمانيون عصابة أثر عصابة وتاريخ العصابة الاولى سنة ٣٧٦ والعصابة الاخيرة وقعت سنة ٥٦٨ فدامت الحركة اذاً في الغرب زهاء قرنين وظلت من جهة المشرق خلال القرون الوسطى كلها ولم يكن بذلك حرب ولا فتح ولم يؤلف الجرمانيون فيلقاً بل كانوا على العكس يثيرون السكان بعضهم في بعض بحيث استحقوا اعجاب كثرة الرومان بعظمهم . قال بول اوروز انا نرى كل يوم أمة من هذه الامم البربرية تبيد أمة أخرى ولقد شاهدنا جيشين من القوط يفني احدهما الآخر ولكن هذه الشعوب تتقاتل تموت وتهلك . والظاهر ان الجرمانيين لم يقتنوا الرومانيين بل كانوا يجاورون من أطلعهم عن رضى ذلك عن غارات غيرهم من الجرمانيين ايضاً ولم يكن لهم مأرب في القضاء على الامبراطورية بل كانوا يؤثرون ان يكونوا في خدمتها . قال اتولف احد ملوك القوط انه كان طمعه اولاً في ابادة الاسم الروماني وان يؤسس من خلال الاراضي الرومانية وعرضها امبراطورية يدعوها القوطية يكون شأنه فيها شأن القيصر اغسطس ولما وقع في نفسه ان القوط لا يعرفون النظام والترتيب ولا يخضعون للقوانين عقد العزم ان يفادي بقوى القوط لتوطيد سلطة الرومان وزيادة نفوذهم وكان يطمع ان يكون مجدد الامبراطورية اذ لم يكن في طاقته ان يؤسس مثلها مباشرة وكان البربر يدخلون الامبراطورية بدون ان يكون لهم منزع سياسي بل بمجرد انهم كانوا يرجون ان تكون حالتهم فيها احسن من جرمانيا ولكن نشأت من دخولهم البلاد نتائج لم يتحدث بها احد اذ ذاك .

البربرية — كان من اقرب النتائج ان تصبح الامبراطورية الى التوحش اقرب منها الى المدنية فمضى زهاء قرن وعصابات مسلحة تطوف البلاد انواع التطواف تحرق المدن وتخرب المصانع وتقتل الحراثين او تسوقهم امامها وبالغ في ذلك الوندالبون خصوصاً حتى غدت لفظة الوندالية تطلق للدلالة على التكالب في التخريب وكان يقول المؤرخ

وهم شعب من فرسان التتار ان العشب لا ينبت بتة في التربة التي وطئتها حوافر خيولهم . فقد خربت مدن كثيرة ولم تقم لها قائمة وبعضها تراجع عمرانه حتى غدا بمثابة دساكر حصينة تخربت دور التمثيل والحمامات والمدارس وجميع المصانع الرومانية شيئاً فشيئاً واتخذ السكان في كثير من المدن احجارها ليبنوا بها اسواراً وهلك ارباب الصناعات النفيسة فلم يبق سوى صناع قليل عددهم لا يستطيعون ان يصنعوا الا اعمالاً ليس عليها مسحة من الذوق والجمال . واضمحل كل ما يقال له مشاهد ومدارس وادب وغدا سكان الامبراطورية يشبهون البربر . قال احد القسيسين ممن كتبوا تاريخ ملوك الميروفنجيين والاسف آخذ منه كل مأخذ : لقد هرم العالم وانثلمت فينا حاسة النكات البديعية فما من امريء نعهده تحدثه نفسه ان يبلغ مستوى خطباء الزمن الماضي .

شعوب جديدة — قضى البربر في اوربا على نظام الامبراطورية الرومانية بجملته سنة ٤٧٦ وليس في رومية امبراطور وكل ملك من ملوك البربر سيد في الارض التي وطئها قومه (١) فانقسمت الامبراطورية الى عدة ممالك بربرية فنشأت في غاليا ممالك الفرنك والبورغوند وفي بريطانيا العظمى السبع الممالك من الانكل والسكسون وفي اسبانيا مملكة الويزيغوت وفي افريقية مملكة الوندال وفي ايطاليا مملكة الاوستروغوت ثم مملكة اللومبارديين وكثير من الممالك اضمحلت ودخلت في مملكة مجاورة ولكنه نشأت في كل مملكة امة مستقلة لها حكومتها وصناعاتها وآدابها .

اخلاق جديدة — انتهت ايام المدنية القديمة بدخول الجرمانيين الى الامبراطورية وليس ذلك ان الجرمانيين حملوا مدنية جديدة كالرومان الى غاليا ولا انهم اتخذوا العادات القديمة كما اتخذ الفرس عادات آسيا بل انهم اتوا ولهم عادات في الحياة والحكومة تخالف ما ألفه الرومان فيما انخفض من بلاد الامبراطورية .

فكان ارباب الاملاك من الرومان يعيشون في المدن عزلاً من الاسلحة خاضعين لموظفي الامبراطور اما الجرمانيون فقد ظلوا يحملون اسلحتهم ونزلوا القرى وكان لكل واحد في حلته جند من الخدمة المخلصين وكل امريء سيد في ارضه لا يخضع بتة

---

(١) ساد البربر فنزلوا في جميع تخوم الامبراطورية التي ظل سكانها محافظين على اخلاقهم ولغتهم الجرمانية فالفلامنديون في البلجيك والفرنك في الشمالي الايسر من نهر الرين والسواب في سويسرا والباقاريون في باقيرا والنمسا ونزل بين نهر الدانوب وبلاد البلقان شعوب من عنصر سلافي مثل الكرواتيين والصربيين

الحكومة وهم يحتفظون بعاداتهم الجرمانية من عدم اداء الضرائب وبذلك قضوا على نظام بيت المال وعلى الاستبداد الامبراطوري ومن هؤلاء المحاربين الغزويين خرج فيما بعد الفرسان الاشراف .

وكان اصحاب الاملاك من الرومانيين يحرثون اراضيهم بواسطة جماعة من العبيد اما الجرمانيون فكانوا يعتمدون في استثمار اراضيهم على اناس من المستعمرين اي على مزارعين يتناوبون حراثتها بالارث . لم يبطلوا العبودية من الامبراطورية بل تركوا العبيد يصبحون بالتدريج خدمة ثم مزارعين يملكون الارض التي يتوفرون على زراعتها .

وعليه فلم يأت البرابرة بعقائد ولا باختراعات جديدة بل جاؤوا يحملون عادات بدلت حالة ارباب الاملاك والفلاحين وغيرت جميع قواعد الحكومة . فغارة البرابرة حادث عظيم في تاريخ المدنية لانه جدد المجتمع والحكومة في اوربا ولكنه كما يحدث في التغييرات الكلية قضت الحال بمرور عدة قرون لادراك نتائج ذلك التغيير

كيف دان الجرمانيون بالنصرانية

الارباب الجرمانيون — كان الجرمانيون كاليونان والرومان يعبدون اربابا كثيرين يتخيلونها في صورة بشرية فالارباب الجرمانيون يؤلفون أسرة باسرها وعندهم ان «وتان» والد الجميع ورب الحروب محارب اعور يتقلد رمحا يخرق الهواء ولا يرى بل يركب على حصان ابيض وكان دونار احد ابنائه ذا لحية حمراء وهو رب الرعد والعواصف يسير في مركبة ويقذف المطرقة الحربية التي تعود الى يده من تلقاء نفسها . وكان الرب تير او ساكسنوت رب السيف والمغازي وفرير على العكس هو الرب الجميل الشاب اللطيف ينضج المزروعات ويشفي الامراض وبالدير رب الحكمة والعدل والصلاح يتولى نصح سائر الارباب . وهناك ربات مثل الربة فريغا امرأة الرب وتان وهي قاسية محترمة تترأس حفلات الزواج والربة فريا وهي فتاة بارعة الجمال لطيفة الشكل يسر مرآها الارباب

وكانت هذه الاسرة السماوية تسكن قلعة عليا اسمها الوالهالا حوائطها ذهب وسقوفها فضة ويربط تلك القلعة العلية بالارض التي يسكنها البشر جسر وهو قوس قزح الذي يجتاز عليه الارباب ويجلس الرب وتان في هذه القلعة على منصة من ذهب يحف به من الارباب ذكورهم واناثهم ويذهب الوالكيور وهن مرسلات سماويات وربات الحروب

والفارات مسلحات بالتروس والرماح راكبات على خيول مطهمة قاصدات الى ساحة الوغى يلتقطن من قضوا فيها وهم يحاربون ويأتين بهم الى قاعة الولهالا حيث ينالون مكافأة عن شجاعتهم وهناك يعيشون بالقرب من الارباب في المآدب التي يأدبها الربات المعروفات باسم والكلور اللاتي يسقينهم شراب العسل والجعة .

ونحو الشمال من اعماق الارض جهنم مظلمة يكثر زمهريرها اسمها نفلهيم اي مسكن الضباب وفيها ينزل رب الشر المدعو لوكي مع ولديه فنريس الذئب المفترس وهولا[1] ربة الموت التي يمثلونها بأن نصفها اسود ناكل في صفحة الجوع ولا تترك ما تتناوله يده . والى هذا المسكن الهائل يذهب المحاربون الاشرار الذين تساهلوا بان تجرعوا كأس الحمام بسبب مرض او شيخوخة . وغلب الرب وتان الرب لوكي وربطه الى ثلاث صخرات ذات زوايا مع حية تقطر سما على رأسه ولكنه يرجى له الخلاص ذات يوم ويأتي مع الجن والشياطين الشريرة على سفينة بنيت باظافر الموتى يهاجم الارباب الساكنين في الولهالا وبذلك تسقط الشجرة الكبرى التي تمسك العالم من السقوط ويحترق قصر الولهالا ويغلب الارباب على امرهم وهذا ما يسمونه عندهم شفق الارباب ثم تجلى ارض احسن من تلك تخرج من البحر المحيط مع ارباب جدد[2]

العبادة — لم يكن للجرمانيين اصنام ولا شادوا لهم معابد بل كانوا يعبدون اربابهم على الجبال او في الغابات بالقرب من شجرة او عين مقدسة وكان رأس كل أسرة يقيم باسمه الصلوات ويقدم القرابين ولم يكن عندهم كهنة جرمانيون في جرمانيا نفسها الا نادرا حتى ان العصابات التي دخلت منهم الى الامبراطورية الرومانية لم تصحب معها احداً منهم . ودين مبني على هذا النحو لا يهتم احد للدفاع عنه فلم يكن من شأنه ان يقاوم طويلاً ولذا كان الجرمانيون عندما داهموا الامبراطورية مستعدين لان يدينوا بالنصرانية

البرابرة الآريون — لما نزل برابرة الشمال لارض الرومانية دانوا الا قليلا

---

(١) ومن اسمها اخذ الانكليز اسم جهنم فقالوا عنها بلغتهم هول

(٢) لم يبق للجرمانيين كتاب يذكرونه ولكن الشعوب السكندناوية (الدانيمركيون والسويديون) كان لهم دين يشبه دين الجرمانيين عرفناه من الكتاب المسمى « الادا » اي الجدة الذي كان كتب في ايسلاندا .

الكثلكة الى بشيعة الآريوسية فقد كان الويزيقوطيون في اسبانيا والاوستروغوتيون في ايطاليا والبورغونديون في غاليا والونداليون في افريقية بل واللومبارديون الذين اتوا في القرن السادس كلهم من اهل المذهب الآريوسي · والظاهر ان الجرمانيين صعب عليهم ان يقبلوا بالرمز الذي جرى الثواطو عليه في مجمع نيقية وربما رموا التصديق بان الابن مساو للآب · وكان رعاياهم الرومان ارثوذكسيين في مذهبهم وقد ادى هذا الاختلاف في الدين مدة تزيد عن قرن الى حروب واضطهادات وكثيراً ما كان احد ملوك البرابرة يأبى تعيين الاساقفة الارثوذكس وقد بقي كرسي قرطاجنة خالياً مدة اربع وعشرين سنة ولم يكتف جنزريك ملك الوندال بنفي الاساقفة بل امر ان يطبق على رعاياه الكاثوليك الاوامر التي كان وضعها الاباطرة على الملاحدة ومع هذا كتبت الغلبة للكثلكة على المذاهب النصرانية الاخرى ودان بها بالتدريج الملوك الآريوسيون وتمذهب بها شعوبهم فانتحل البورغونديون هذا المذهب في اوائل القرن السادس وانتحله الويزيقوطيون الاسبانيون في سنة ٥٨٩ واللومبارديون في اواسط القرن السابع اما الاستروغوث فقد خربتها جيوش الامبراطور يوستينيانوس ·

انتحال الفرنك (الافرنج او الفرنك او الفرنسيس) النصرانية — بقي الفرنك الذين نزلوا غاليا من الشمال على وثنيتهم · وقد فضل الاساقفة الارثوذكسيون هؤلاء الوثنيين الذين كانوا يأملون تنصيرهم بدلاً من البرابرة المسيحيين الذين ظلوا على اريوسيتهم ورضي احد زعماء العصابات الفرنكية واسمه كلوفيس ان يتعمد على يد اسقف ريمس القديس ريمي وحذا حذوه ثلاثة آلاف رجل ولم يلبث زعيم العصبة هذا وقد عضده رجال الكهنوت الكاثوليكي ان اصبح وحده ملك غاليا كلها ومنذ ذلك العهد اصبح جميع ملوك الفرنك من نسل كلوفيس مسيحيين وعضدوا الكنيسة الارثوذكسية وكان ذلك من جملة الاسباب في نجاحهم اما عامة الفرنك فقد ابطأت في انتحالها هذا الدين فظل كثير من الفلاحين زمناً طويلاً على وثنيتهم ومنهم من كان من حاشية الملك · وفي اواسط القرن السادس صادفت الملكة رادغوند وهي مسيحية غيورة في الطرق العامة هيكلاً وثنياً فاحرقته فهم المحاربون من اهل موكبها ان يثوروا عليها فقام الفرنك بسيوفهم وعصيهم · ومضى زهاء قرنين اي من القرن السادس الى السابع حتى غدا الفرنك كلهم مسيحيين

قاعدة القديس بنوا — أنشئت في ايطاليا واسبانيا وغاليا منذ القرن الرابع اخويات نسيسين ولكن المعيشة التي يعيشونها في هذه الاديار من بلاد الغرب لم تشبه عيشة النساك في ثيبة (١) وفي اواخر القرن الخامس انقطع احد اشراف الايطاليين واسمه بنوا (٤٨٠—٥٤٣) الى جبل كاسين في بلاد نابولي وذلك بعد ان عاش بضع سنين متنسكاً في غار وسط الصخور وكان ثمت معبد وغابة على اسم ابولون فبشر بنوا فلاحي ذلك الجوار وامرهم ان يخربوا ذلك المعبد واقام بدلاً منه كنيستين وديراً عظيماً وغدا بنوا رئيس اخوية كبرى وانشأ نظاماً طويلاً للمسيحية قاضياً عليهم ان يتخلوا عن الدنيا وعن الأسرة والملك وان لا يملكوا شيئاً لانفسهم حتى ولا الصفائح (السبورات) والمناقش التي يكتبون بها وان يلبسوا كساء من الصوف الخشن او مسوحاً ذات قبعات (اسكيم) كان يلبسها الفلاحون وان يخضعوا بدون تردد لكل مايصدر عن الرئيس من الاوامر قال القديس بنوا في المدخل : اسمعوا ايها الابناء اوامر الرب ولا تخافوا من الانقياد لامر اب صالح والعمل به وذلك حتى يعودكم الخضوع التام الى ما ابعدكم عنه العقوق والكسل . وقد سمي الدير مدرسة العبودية الالهية وفي ذلك لم يأت القديس بنوا شيئاً سوى الجري على مثال رهبان المشرق ولكنه يختلف عنهم في كيفية استعمال الوقت فبدلاً من التأمل واعمال التنسك امر بالعمل قائلاً ان الكسل عدو الروح وعلى الجملة فان حياة الراهب داخلة تحت القاعدة ساعة فساعة فعليه ان يعمل كل يوم بيديه سبع ساعات ويقرأ ساعتين ويقسم اليوم الى سبعة قداديس يبدأ الاول منها في الساعة الثانية ليلاً . واذا اراد رجل ان يدخل في هذه الطائفة يقبل فيها على سبيل التجربة سنة (وبعد شهرين تتلى على مسامعه قاعدة : « هذا هو القانون الذي يجب عليك ان تقاتل تحت لوائه فان كنت في مكنة من الاحتفاظ به فادخل والا فانت حر ان تذهب من هنا بسلام » . وبعد سنة يوقع على عهد يضعه على المذبح بحضور جميع القسيسين ثم يركع امام كل واحد منهم على حدته ومنذ ذاك اليوم يوقن بانه لم يعد يملك شيئاً حتى ولا جسمه . ولم تلبث قاعدة القديس بنوا ان اصبحت عامة على رهبان الغرب اتخذتها جميع الاديار القديمة وعليها أنشئت جميع الاديار الجديدة واصبح بعد حين عامة رهبان الغرب من البندكتيين .

---

(١) بلاد ثيبة Thebaide هي صحراء في مصر العليا بين سلسلة جبال بلاد العرب وسلسلة ليبيا انقطع اليها النساك الاول من اهل النصرانية ومدينة ثيبة عاصمة تلك البلاد

الرهبان البندكتيون — كان قسم من بلاد غاليا وايطاليا في القرن السادس قد اصبح خراباً يباباً وكثرت الغابات العظيمة البلاد فدخل الرهبان الذين يعيشون [illegible] القفر ويزيلون الحراج والشوك ويقيمون لهم معبداً او بعض الاكواخ ثم يشتغلون باحياء موات الاراضي البائرة . وكثيراً ما يعطيهم احد الملوك او [illegible] او ارباب الاملاك قطعة واسعة (اذ كانت قيمة الارض رخيصة اذ ذاك) فيؤسسون ديراً جديداً . وقد كان الرهبان يشتغلون [illegible] وبساتين ومصانع ويحرثون الارض ويصنعون الاشربة ويصنعون [illegible] العلاجات الطبية وينسخون المخطوطات فكانت اديارهم [illegible] كما هو معمول [illegible] من العبيد والزراعين في اصطناعهم قرية كبرى فكانما نشأت في فرنسا كثير من المدن حول الاديار وكثير من المدن سميت باسم القديس رئيس ديرها الاول [illegible] وانشئت اول من الكنائس [illegible] في بعض ارباب الدير البندكتيين .

تنصر الانكليز السكسونيين — يروى ان القديس غريغوريوس رأى قبل ان يصير بابا في سوق العبيد في رومية اولاداً شقراً بيض البشرة يباعون فسأل من اين أتي بهم [illegible] فقالوا [illegible] الا تكونون [illegible] مجوس؟ فقيل له انهم وثنيون بعد فاجاب هل من الممكن ان تحرم هذه المخلوقات الجميلة [illegible] محروماً من نعمة الرب . ومنذ ذلك الحين رضي ان ينصر الانكليز فلما صار بابا بعث اربعين راهباً يقودهم اوغسطينوس الى [illegible] فوصل الرهبان يحملون لوحة رسم عليها المسيح [illegible] على [illegible] وسأل [illegible] الدين الجديد . وقف احد الاشراف في المجلس وقال [illegible] في دار الشتاء عندما تكون جالساً الى المائدة مع [illegible] والسماء تمطر والثلج والريح تعصف في الخارج [illegible] داخلاً من باب وخارجاً من آخر وهذه المدة التي يقضيها في الدار [illegible] لا يبرحه ويعود الى الشتاء الذي كان فيه [illegible] الارض بالنسبة [illegible] في الآخرة [illegible] ولكن اي وقت [illegible] الجديد [illegible] فهي جديرة بان تقبل [illegible]

ترق لهؤلاء البرابرة المهتدين لانها تحدثهم عن اليوم الآخر . وقد نصح البابا المرسلين المسيحيين ان لا يناقضوا المعتقدات القديمة لانه يجب الاحتراز من تخريب معابد الاوثان بل الواجب تطهيرها وتخصيصها بعبادة الاله الحقيقي لان الامة كلما رأت اماكن عبادتها القديمة باقية تكون اكثر استعداداً الى الاختلاف اليها للالفة والعادة فقد اعتاد رجال هذه الامة ان يذبحوا البقر ضحايا فالواجب ان يبدلوا هذه العبادة بزياح مسيحي ودعهم يبنون اكواخاً من ورق الشجر حول معابدهم المحولة كنائس يجتمعون فيها ويقودون اليها الحيوانات التي يذبحونها للاكل لا مثل ضحايا الشياطين ولكن في سبيل الله تعالى . ولم يضطهد الانكليز السكسونيون المرسلين المسيحيين بل انهم لم يتنصروا الا ببطء وتوان لان الملوك ولاسيما الملكات تحمي الديانة الجديدة كما هي الحال في غاليا ولكن المحاربين لم يسرعوا بقبولها

المرسلون الايرلنديون — دانت ايرلاندا بالنصرانية منذ القرن الخامس وكانت اذ ذاك مشهورة بأديارها العديدة وحمية كنائسها الغيبية فكانت تلقب بجزيرة القديسين فسافر مرسلون من اديار ايرلندا ونصروا جميع جزيرة بريطانيا العظمى فالتقوا اذ ذاك بالمرسلين القادمين من رومية . وكان لكنيسة ايرلندا ومؤسسوها شرقيون من اهل آسيا بعض عادات شرقية فتحتفل بعيد الفصح مثلاً في غير الوقت الذي تحتفل به كنيسة رومية واصطلحت على وضع اكليل الاكليروس على مقدم الرأس بدلاً من الاكليل على صورة تاج . وهذه الاختلافات في الصورة دعت الى اشتداد العراك بين المرسلين الايرلنديين والمرسلين الرومانيين [illegible] من المكانة واليك ما ذكره احد الكتاب الانكلوسكسونيين من نزاع عظيم وقع [illegible] سنة ٦٦٤ بحضور جميع مجلس الشعب . صرح كولمان الايرلندي بان مواطنيه لا يستطيعون ان يحيدوا عن طريقتهم في الاحتفال بعيد الفصح لان ذلك ما ألفه آباؤهم الاولون وبلفريد الانكلوسكسوني : ان الاحتفال بالفصح كما رأيناه يحتفل به في رومية حيث عاش الرسولان بولس وبطرس وكذلك في ايطاليا وجميع الامبراطورية والايرلنديون فقط يعاندون في مشاكسة بقية العالم وهل من الحكمة ان يفضل ابوك كولمبا مع قدسيته على السعيد امير الرسل الذي قال له سيدنا يسوع : انك بطرس (ومعنى بطرس الحجر) وعلى هذا الحجر ابني كنيستي وادفع اليك مفاتيح ملكوت السموات — فسأل الملك حينئذ ذاك الايرلندي قائلاً : أحق ان هذه الكلمات قالها سيدنا المسيح للقديس بطرس ؟

— [illegible] — قل لي [illegible] ان تبرهن [illegible] — لا استطيع — [illegible] مفاتيح السموات أعطيت لبطرس — نعم — [illegible] الباب [illegible] في كل [illegible] الا احد [illegible] ملكوت السموات [illegible] اليها .

وهذه الحجة كانت [illegible] الحضور [illegible] في انكلترا [illegible] بعد [illegible]

[illegible] في المانيا — [illegible] من [illegible] في القرن السادس [illegible] في الكنيسة [illegible] في [illegible] [illegible] الى الكنيسة [illegible] هذه الرسالة [illegible] الرب [illegible] من [illegible] والشعب [illegible] .

[illegible] في انكلترا [illegible] في جميع البلاد [illegible] في انكلترا [illegible] .

الاسلام

دين العرب الاول — انتهت تخوم المملكة الرومانية في الشرق عند رمال بلاد العرب . ظل هذا الشعب مستقلاً بربرياً منقسماً الى عدة قبائل وكان لسكان الساحل من العرب بعض مدن صغرى تعرف الزراعة وتبعث بقوافلها الى الغرب تحمل اليهم البن والبخور والتمر و يطوف سكان الداخلية القفر بمواشيهم مسلحين واكبر شهوات حياتهم نصفهم رعاة والنصف الآخر قطاع طريق (كما هي عيشة البدو الى اليوم) ويقتتل العرب تقاتل القبيلة القبيلة ولكنهم يعتبرون انفسهم باجمعهم من عنصر واحد وهم كالاسرائيليين من العنصر الذي نسميه العنصر السامي وبعيدون عن آريي الهند واوربا امتيازاً ظاهراً بلغته ودينه . ولقد كانت العرب تعبد الهاً قادراً خالقاً هو الله تعالى ولكنها تعبد الهة خاصة وهي ارواح لا ترى وكان لكل قبيلة اله خاص تعبده في صورة نجم او حجر او شجر(١) ولكنهم كلهم يحجون في بلادهم الى الكعبة في مكة وهي البيت المقدس الذي لا يعرف قدمه والكعبة معبد على صورة المكعب او زهر النرد جدرانها من حجر غير نحيت مغشاة بقطعة من الصوف ويحفظون فيها الحجر الاسود المشهور المحترم عند العرب اجمع (وهو قطعة من حجر بركاني تحطمت اليوم الى اثني عشرة قطعة . كذا) وقد وضعت كل قبيلة في الكعبة صنماً خاصاً بها ويقال انه كان فيه ٣٦٠ صنماً ومنها صنم لابراهيم وصورة العذراء مع ابنها يسوع وانشأت قريش مدينة مكة الصغرى حوالي القرن الخامس في الوادي الضيق الذي تحيط به الصخور الماحلة محيطة بالكعبة ويقام فيها كل سنة سوق واعياد يتنافس فيها الشعراء وتبطل في خلال ذلك الحروب فمكة كانت هي المدينة المقدسة التي يحج اليها الناس من اقطار بلاد العرب كافة .

محمد (عليه الصلاة والسلام) — ولد محمد في قبيلة قريش المقدسة وهم سادة مكة وسدنة الكعبة (بين سنتي ٥٦٩ — ٥٧٠) وعاش عيش اليتيم الفقير الى سن الاربعين لا شأن له . وكان رجلاً جميلاً(٢) سوداويا تنتابه عوارض من الحمى ونوبات عصبية وكان

---

(١) تهود كثير من العرب وكان بعضهم على دين النصارى

(٢) المترجم . آلمت قلبنا الاهانة في نقل ما كتبه المؤلف ان نعرب عبارته على علاتها في الاسلام والرسول الامي العربي صلوات الله عليه علما مع علمنا بان المؤلف نقل فيما كتب لا يعرف بعض اعداء الاسلام في القرون الوسطى انطق بلسان التعصب —

— الصميم وخرج بحديثه عن طور المؤرخ الى طور الطاعن الهجاء والمجادل المماري المتعسف على مطالعة كتاب اظهار الحق للشيخ رحمة الله الهندي فانه قد تكفل بالرد على امثال صنيوبوس ولو كان المجال يحمل مناقشة لاوردنا نقولاً كثيرة عن علماء الافرنج القدماء في سيرة خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام عسى ان تكون جواباً لمن يكتب في القرن العشرين وما هو الا ابن القرن الثاني عشر او الثالث عشر بافكاره وتصوراته ونكتفي الآن بنقل جمل من كلام كارليل فيلسوف الانكليز في الرسالة المحمدية قال :

لقد اصبح من اكبر العار على كل فرد متمدن من ابناء هذا العصر ان يصغي الى مايظن من ان دين الاسلام كذب وان محمداً خداع مزور وآن لنا ان نحارب مايشاع من مثل هذه الاقوال السخيفة المخجلة فان الرسالة التي اداها ذلك الرسول مازالت السراج المنير مدة اثني عشر قرناً لنحو مائتي مليون من الناس امثالنا خلقهم الله الذي خلقنا افكان احدكم يظن ان هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائتة الحصر والاحصاء اكذوبة وخدعة ؟ اما انا فلا استطيع ان أرى هذا الرأي ابداً ولو ان الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج و يصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول فما الناس الا بله ومجانين وما الحياة الا سخف وعبث وأضلولة كان الاولى بها ان لاتخلق .....

هل رأيتم قط معشر الاخوان ان رجلاً كاذباً يستطيع ان يوجد ديناً وينشره عجباً والله ان الرجل الكاذب لايقدر ان يبني بيتاً من الطوب .... وعلى ذلك فلسنا نعد محمداً قط رجلاً كاذباً متصنعاً يتذرع بالحيل والوسائل الى بغيته او يطمح الى درجة ملك او سلطان او غير ذلك من الحقائر والصغائر وما الرسالة التي اداها الا حقاً صراحاً وما كلمته الا صوتاً صادقاً صادراً من العالم المجهول كلا ما محمد بالكاذب ولا الملفق وانما هو قطعة من الحياة قد تفطر عنها قلب الطبيعة فاذا هي شهاب قد اضاء العالم اجمع ذلك امر الله

... ثم لا تنس شيئاً آخر وهو انه لم يتلق دروساً عن استاذ ابداً وكانت صناعة الخط حديثة العهد اذ ذاك في بلاد العرب ويظهر لي ان الحقيقة هي ان محمداً لم يكن يعرف الخط والقراءة وكل ما تعلم هو عيشة الصحراء واحوالها وكل ما وفق الى معرفته هو ما امكنه ان يشاهده بعينه ويتلقى فؤاده من هذا الكون العظيم النهاية وعجيب والله أمية محمد مع انه لم يعرف من العالم ولا من علومه الا ما تيسر له ان يبصره بنفسه او يصل الى سمعه في ظلمات صحراء العرب ولم يشعره ولم يدر به انه لم يعرف علوم العالم —

— لا قديمها ولا حديثها لانه كان بنفسه غنياً عن كل ذلك ولم يقتبس محمد من نور اي انسان آخر ولم يغترف من مناهل غيره ولم يك في جميع اشباهه من الانبياء والعظماء — اولئك الذين اشبههم بالمصابيح الهادية في ظلمات الدهور — من كان بين محمد وبينه ادنى صلة . . . .

واني لاعرف عنه انه كان كثير الصمت يسكت حيث لا موجب للكلام فاذا نطق فما شئت من لب وفضل واخلاص وحكمة لا يتناول غرضاً فيتركه الا وقد انار شبهته وكشف ظلمته وابان حجته واستثار دفينته وهكذا يكون الكلام والا فلا وقد رأيناه طول حياته رجلاً راسخ المبدأ صارم العزم بعيد الهمة كريماً براً رؤوفاً تقياً فاضلاً حراً . . . .

ومما يبطل دعوى القائلين ان محمداً لم يكن صادقاً في رسالته بل كان ملفقاً مزوراً انه قضى عنفوان شبابه وحرارة صباه في تلك العيشة الهادئة المطمئنة لم يحاول اثناءها احداث ضجة ولا دوي مما يكون وراءه ذكر وشهرة وجاه وسلطة ولم يك الا بعد الاربعين ان تحدث برسالة سماوية . . . .

ايزعم الكاذبون ان الطمع وحب الدنيا هو الذي اقام محمداً واثاره . حمق وايم الله وسخافة وهوس اي فائدة لمثل هذا الرجل في جميع بلاد العرب وفي تاج قيصر وصولجان كسرى وجميع ما بالارض من تيجان وصولجانات واين التيجان والدول جميعاً بعد حين من الدهر افي مشيخة مكة والقضيب المفضض الطرف او في ملك كسرى وتاج ذهبي الذؤابة مغنم لمرء ومطمع؟ كلا اذن . فلنضرب صفحاً عن مذهب الجائرين القائل ان محمداً كاذب ونعد موافقتهم عاراً وسبة وسخافة وحمقاً فلنربأ بنفوسنا عنه ولنترفع . . . .

ولقد قيل كثيراً في شأن نشر محمد دينه بالسيف فاذا جعل الناس ذلك دليلاً على كذبه فشد ما اخطأوا وجاروا فهم يقولون ما كان الدين لينتشر لولا السيف ولكن ما هو الذي اوجد السيف؟ هو قوة ذلك الدين وانه حق والرأي الجديد اول ما ينشأ يكون في رأس رجل واحد فالذي يعتقده هو فرد — فرد ضد العالم اجمع فاذا تناول هذا الفرد سيفاً وقام في وجه الدنيا فقلما والله يضيع وارى على العموم ان الحق ينشر نفسه بأية طريقة حسبما تقتضيه الحال او لم تروا ان النصرانية كانت لا تأنف ان تستخدم السيف احياناً وحسبكم ما فعل شارلمان بقبائل السكسون ولا احفل اكان انتشار الحق بالسيف او باللسان او بأية —

آية أخرى فالمذهب الصادق تنشر سلطتها بالخطابة أو بالصحافة أو بالنار لندعها تكافح — وتجاهد بأيديها وأرجلها وأظافرها فإنها لن تهزم إلا ما كان يستحق أن يهزم وليس في طاقتها أن تفني ما هو خير منها بل ما هو أحط وأدنى ...

اما القرآن فان فرط اعجاب المسلمين به وقولهم بإعجازه هو أكبر دليل على اختلاف الأذواق في الأمم المختلفة هذا وان الترجمة تذهب بأكثر جمال الصنعة وحسن الصياغة .... اذا خرجت الكلمة من اللسان لم تجاوز الآذان وإذا خرجت من القلب نفذت الى القلب والقرآن خارج من فؤاد محمد فهو جدير ان يصل الى افئدة سامعيه وقارئيه وقد زعم براديه و[illegible] ان طائفة من الأحاجيج والتزاويق لفقها محمد لتكون له اعذاراً عما كان يرتكب ويقترف وذرائع لبلوغ مطامعه وغاياته ولكنه قد آن لنا ان نرفض جميع هذه الأقوال التي [illegible] كل الرمي محمداً بمثل هذه الأكاذيب وما كان ذو نظر صادق يرى قط في القرآن مثل ذلك الرأي الباطل والقرآن يا مبصرون ما هو الا جمرات ذكيات قذفت بها نفس رجل كبير النفس عند ان اوقدتها الأفكار الطوال في الخلوات الصامتات ...

وما كان محمد أخا شهوات برغم ما اتهم به ظلماً وعدواناً وشد ما نجور ونخطئ اذا حسبناه رجلاً شهوانياً لا هم له الا قضاء مآربه من الملاذ — كلا فما ابعد ما كان بينه وبين الملاذ اية كانت لقد كان زاهداً متقشفاً في مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه وسائر اموره واحواله وكان طعامه عادة الخبز والماء وربما تتابعت الشهور ولم توقد بداره نار وانهم ليذكرون ونعم ما يذكرون انه كان يصلح ويرقع ثوبه بيده فهل بعد ذلك مكرمة ومفخرة فحبذا محمد من رجل خشن اللباس خشن الطعام مجتهد في الله قائم النهار ساهر الليل دائباً في نشر دين الله غير طامع الى ما يطمح اليه اصاغر الرجال من رتبة او دولة او سلطان غير متطلع الى ذكر او شهرة كيفما كانت رجل عظيم وربكم والا لما كان ملاقياً من اولئك العرب الغلاظ توقيراً واحتراماً وإكباراً وإعظاماً ....

ويكثر النقد لغلبة الحسية والمادية على جنة محمد وناره فأقول ان العيب في ذلك على الشراح والمفسرين لأن ما جاء في الكتاب من القرآن قد اقل جداً من اسناد الحسيات والماديات الى الجنة والنار وكل ما فيه عن هذا الشأن آيات وتلميح وإيماء المفسرون والشراح هم الذين لم يتركوا لذة حسية ولا متعة شهوية حتى ألصقوها بالجنة ولا عذاباً ماديا ولا جثمانياً حتى اسندوه الى النار ثم لا تنسوا ان القرآن جعل اكبر ملاذ —

حنيفاً اي كافراً بعبادات العرب ويسمون بهذا الاسم من لا يعبد الاصنام بل يعبد الهاً واحداً رب ابراهيم والد الشعب العربي . وكان رجال قبيلة محمد تنظر اليه بغير عين الرضى فسكن بين الصخور الجرداء المحرقة وفي سنة ٦١١ بحسب الرواية العربية حل محمد بأنه صاحب دين وظهرت له روح فائقة في قوتها سماها محمد بعد ذلك الملك جبرائيل قالت له : اقرأ فقال محمد : ما انا بقارئ . فقالت له اقرأ . ومنذ ذلك العهد رأى محمد نفسه ان الله عهد اليه مباشرة بنشر الدين الحنيفي فبدأ يدعو زوجته وبناته اولاً ثم اصدقاءه ورجال مكة فقاومه زعماء القبيلة اجمع فاضطر الى الهجرة الى المدينة (سنة ٦٢٢) (١) ولما كان اهل المدينة اعداء لاهل مكة اعترفوا بنبوة محمد واطاعوه الطاعة واحاط المتبوعون بالرسول في الذين من اصحابه هاجروا من مكة يتبعونه فبدأ اذ ذاك يناوش قوافل مكة القتال ويغزوها مما انتهى بخضوع اهل مكة ثم حمل جميع العرب على قبول دينه .

ولم يأت محمد بمعجزات ولم يدع انه روح الهي بل كان يرى نفسه فقط رجلاً ملهماً يتكلم ويعمل باسم الله تعالى ويظهر في مظهر رسول ومصلح قائلاً ان الدين الحق كان منذ عهد آدم وهو ان يعتقد بواحد احد وان يخضع لاوامره التي يبلغها البشر على لسان انبيائه نوح وابراهيم وموسى وعيسى كانوا رسلاً . وما اليهودية والنصرانية الا اوهام مطلقة بل اشكال محرفة من دين الله الحق وهذا الدين الابدي هو الذي جاء محمد يدعو اليه قومه من العرب بل انه خاتم النبيين والمرسلين وهذا الذي علمه اتباعه . وقد اخذ محمد كثيراً من تعاليمه عن التوراة والانجيل (٢) ولذا ساغ ان يقال ان محمداً مبتدع مسيحي والاسلام بدعة من بدع النصرانية في اصطلاح العرب .

— الجنة روحانياً اذ قال « وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها آمنين » فالسلام والامن هي في نظر كل عاقل اقصى اماني المرء . واعظم الملاذ الجنة والشيء الذي عبثاً يلتمسه الانسان في الحياة الدنيا وقال ايضاً « ونزعنا ما في صدورهم من غل اخواناً على سرر متقابلين » والغل وهو الحقد اخبث من الغل مصدر المحن والمصائب والشر والآفات واي شيء انفع من التآلف والتعاطف . . .

(١) اعتبرت السنة في الهجرة هي اول سنة في تاريخ المسلمين كما ان سنة ولادة المسيح (عليه الصلاة والسلام) هي مبدأ التاريخ المسيحي

(٢) الظاهر ان محمداً لم يعرف شيئاً عن حياة المسيح الا من الاناجيل المزورة

القرآن — كان محمد أمياً فلما اوحي اليه ودعا الى دينه كانت تنقل كلماته فكتبت على الحجارة وورق النخيل وعظام الجمال . والقرآن (الكتاب) هو مجموع هذه القطع (١) ضمت بعضها الى بعض لا على الترتيب الذي املاه محمد بل بدئ بأطولها ولم تجمع الا بعد وفاة محمد على يد امين سره زيد وبعد حين دونه الخليفة عثمان تدويناً رسمياً وهذا هو الذي نراه بين ايدينا (٢) وفي القرآن مواعظ وقصص وقواعد واحكام مبعثرة متفرقة فهو في آن واحد كلام منزل في الدين والاخلاق والنظام والدستور .

الاسلام — يسمى الدين الذي دعا اليه محمد دين الاسلام اي الاستسلام لارادة الله تعالى والذين يدينون به يسمون المسلمين (اي المستسلمين) والاسلام عبارة عن هذه الكلمات : « لا اله الا الله محمد رسول الله » فالواجب اذن الاعتقاد بالله الذي خلق العالم ويديره وهو على عرشه والملائكة حافون به يجب الخضوع لارادته التي ابلغها الناس على لسان انبيائه وقد جاء القرآن باوامره « الكتاب الذي يحوي الحقيقة » ومن يعتقد بالقرآن ويأتمر باوامره الالهية ينال الزلفى من المولى تعالى ويكافأ على عمله ومن يخل ايمانه ولم يخضع لسلطانه فهو مذنب مع الله يعاقبه ويجازيه

وسيأتي يوم « القارعة ما القارعة وما ادريك ما القارعة يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش فاما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية واما من خفت موازينه فامه هاوية ، وما ادراك ما هية ، نار حامية ... وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا حتى اذا جاؤها فتحت ابوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين قيل ادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمراً حتى اذا جاؤها وفتحت ابوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ... اولئك المقربون في جنات النعيم ... متكئين عليها متقابلين يطوف عليهم ولدان مخلدون باكواب واباريق وكأس من معين لا يصدعون

---

(١) تألف منها ١١٤ قطعة كل منها سورة

(٢) اعتاد المسلمون منذ القرن العاشر ان يغالوا ببلاغة القرآن ولكن هذا الاعجاب ببلاغته لم يكن مألوفاً للعرب في القرون الاولى ويرى احد المعرفين دوزي ان معظم آيات القرآن قد كتبت على العكس بلغة عربية تكاد تكون الى الركاكة (٢)

« ولا ينزفون وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون . . . واصحاب الشمال ما اصحاب الشمال في سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم »

اما الواجبات الدينية العملية فعلى المؤمن ان يصلي خمس مرات كل يوم في اوقات معينة وفي كل مدينة اسلامية يدعو المؤذن الى الصلاة من اعلى المسجد في الوقت المعين وعلى المؤمن ان يتوضأ للصلاة واذا لم يكن له ماء ان يتيمم بالتراب وان يصوم شهر رمضان لا يتناول الطعام فيه الا من الليل في الوقت الذي لا يتبين فيه الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر وان يخرج من الزكاة عشر ماله (؟) على الاقل وان يحج الى مكة ان استطاع الى الحج سبيلا .

وادب الدين الاسلامي هو ان لا يرتكب المرء عملاً دنيئاً ولا يشرب الخمر ولا يرابي وان يقبل ارادة المولى راضياً لان كل امرىء لا يخرج عما كتب له في الازل ولا سبيل له الى التخلص من المقدور فالاسلام هو دين القضاء والقدر .

انتشار الاسلام — دعا محمد سنة ٦١١ الى دينه وكان العرب عامة يوم وفاته سنة ٦٣٢ مسلمين اما بعضهم فعن اعتقاد والبعض الآخر بالقوة وذلك مثل اهل قبيلة الثاكيفيت Takifite (كذا) فقد بعثوا يطلبون الصلح وانهم يدخلون في الدين الجديد اذا رضي ان يعفيهم من الصلاة وان يترك لهم صنمهم اللات ثلاث سنين . فقال محمد ان ثلاث سنين في الوثنية يطول امرها فعرض الثاكيفيون ان يبقوا على عبادة الاصنام سنة فقبل محمد وما اخذ يلح عقد الصلح ندم على هذا الاختيار وقال لا اريد ان اتمم هذه الهدنة فينبغي عليكم الآن تخضعوا او تقاتلوا فطلبوا ان يبقوا على عبادة اللات ستة اشهر فأبى عليهم ثم اكتفوا بمهلة شهر فلم يرض ان يمهلهم ساعة فاسلموا وتاكيفيت ودخل الظافرون المسلمون المدينة وحطموا الاصنام

وبعد وفاة محمد اخذ العرب ينشرون الاسلام بمثل هذه الطرق ولم يبعثوا لدعوة الشعوب الاخرى الى الاسلام رسلاً كالمسيحيين بل جيوشاً فقد قال الرسول وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فحرب المشركين جهاد مقدس والله مع المجاهدين ومن قتل منهم فجزاؤه الجنة .

وقد مضى الخلفاء بعد الرسول بهذا الجهاد فكانوا يبعثون الى جميع الشعوب المجاورة رسولاً يهددون البلدان يخيرونهم بين ثلاثة امور : القرآن او الجزية او السيف ومن

[illegible] بالإيمان ومن يعتصمون في دولة [illegible] يصبحون رعايا [illegible] ومن يقاومون يقتلون ولم يستطع العدو ان يقف في وجه هذه الجيوش . فاستولى المسلمون في الشرق على سورية وفلسطين وجميع مملكة الفرس وارمينية وتركستان وجزء من بلاد الهند وفي الغرب على مصر وطرابلس وافريقية واسبانيا وخضع جميع [illegible] لأمرهم الا قليلا ولم يبق مسيحيون الا في ولايات الامبراطورية القديمة وفي اقل من قرن (٦٣٢ — ٧١١) انتشر الدين الجديد من بحر الظلمات الى بحر الصين وما من دين انتشر بهذه السرعة وقد ثبتت مملكة الخلفاء [illegible] على الأثر وكرّ [illegible] جميع البلاد التي أسلم أهلها في اسلامها

وما [illegible] الإسلام [illegible] وكانوا [illegible] جديدة [illegible] من الاتراك حملوا هذا الدين الى القسطنطينية ولا يزال [illegible] في [illegible] الصين في بلاد الهند والصين وماليزيا ولا سيما بين زنوج افريقية . والإسلام [illegible] على مستوى [illegible] ويبلغ عدد المسلمين اليوم نحو [illegible] مليون [illegible] كانت النصرانية دين أمم الشمال فالاسلام دين شعوب الجنوب

المملكة البيزنطية

المملكة البيزنطية — كانت [illegible] التي [illegible] في بلاد الامبراطورية الرومانية وحروب جيوشها الا قليلا على الغرب وقد بقي في القسطنطينية امبراطور يحكم الشرق كله . ففي القرنين الخامس والسادس [illegible] الامبراطورية الرومانية محتفظة [illegible] بممتلكاتها القديمة على الاقل وحكم [illegible] في آسيا الصغرى وسورية ومصر وفي جميع البلاد الواقعة شرقي البحر الادرياتيكي حتى لقد خضعت لها ايطاليا وافريقية وشطر من اسبانيا بضع سنين . ثم هاجمها الفاتحون فاقتطعوا منها [illegible] الصقالبة [illegible] وبلاد [illegible] في البلقان واقتطع منها العرب جميع افريقية وسورية وجزءاً من آسيا ولم يبق لها سوى قطعتين على جانبي مدينة القسطنطينية في الغرب تراقيا [illegible] وفي الشرق آسيا الصغرى . بيد ان [illegible] الامبراطورية الشرقية [illegible] وحكومتها [illegible] الثالثة . وظلت على هذا الحال الى ان استولى العثمانيون على القسطنطينية (١٤٥٣) وهذه الامبراطورية التي اصبحت [illegible] التي تسميها الامة [illegible] [illegible] — كان كل منصب الامبراطور [illegible] لم يبق في الامبراطورية

الشرقية أسرة مالكة فان دسائس القصر وثورات عامة القسطنطينية لم تكد تمكن الامبراطور الا في النادر من نقل سلطته الى اخلافه فكان معظم الاباطرة مغتصبين للملك · واشهرهم يوستنيانوس (٥٢٧ — ٥٦٥) وهو ابن فلاح من ولايات الدانوب كان يرعى الغنم في منزله ودخل خاله يوستن بعد رعاية الغنم في الجندية وما زال ينتقل من رتبة الى اخرى حتى غدا كونتاً (قائد حرس القيصر) ثم امبراطوراً واستدعى الى القسطنطينية يوستنيانوس الذي اشتهر ببذله المال للجند وتمثيله الملاعب امام العامة فنودي به امبراطوراً عقيب وفاة خاله ·

ومن شأن يوستنيانوس ان يبحث عن كل مايزيد في اعجابه فتوفر على الشهرة بفتح البلاد والبناء والمعاهد والمصانع وتقنين القوانين فاراد ان يكون فاتحاً عمرانياً مشرعاً · واذ كان غير صالح للحرب عهد الى صديقه بليزير ان يفتح البلاد باسمه وكان للامبراطورية اذ ذاك عدوان احدهما من الشرق وهي مملكة فارس الحربية والآخر من الغرب وهي الممالك التي أسسها البرابرة الجرمانيون في ولايات الامبراطورية القديمة وكان ملك الفرس صاحب حول وطول جيشه قوي ونظامه موطد الاركان وملوك البربر ضعفاء الجسم البذخ مثالثهم بمقتهم الشعب الكاثوليكي لا نظام لهم ولا ترتيب · فكان يوستنيانوس من جهة الشرق يغلب ولم يستطع بليزير غير الدفاع عن آسيا الصغرى وان عقد الصلح على شرط ان يدفع الجزية (٥٣٣) وبعد آخر مدته (٥٦٢) وقع على عهدة صلح جديدة متعهداً بان يؤدي كل سنة ٣٠٠٠ ذهب وقد وفق بليزير من جهة ممالك البربر كل التوفيق فافتتح مملكة الونداليين في افريقية (٥٣٤) بحملة واحدة ومملكة الاوستروغوت في ايطاليا بعد حرب ثماني عشرة سنة (٥٢٥ — ٥٣٣) وتغلب على جنوبي اسبانيا اخذها من صاحبها احد ملوك الويزيغوت · فحق ليوستنيانوس ان يفاخر بانه وحد شطراً من الامبراطورية الرومانية القديمة ولكن استيلاءه عليها لم يكن له من القوة مايدفع به ما فتحه من البلاد فلم تنج ايطاليا من غارة اللمبارديين ولا افريقية من العرب

وتوفر يوستنيانوس وهو البناء العمراني على ان يدافع عن الامبراطورية بحصون اقامها وزين القسطنطينية بمصانع ومشاهد وحق لا يحصى الاعقاب ماقام به من جلائل الاعمال كتب بعضها كل مابناه فكان مابناه على شاطئ الدانوب ٨٠ قلعة وفي ولايات اوربا ٦٠٠ وانشأ السد الذي يحول الخليج الذي قامت عليه مدينة القسطنطينية وعملاً

من الحصون على طول الفرات · واهم هذه المصانع الكنيسة الكاتدرائية في القسطنطينية المعروفة باياصوفيا اجمل اعمال الهندسة البيزنطية (وهي باقية الى اليوم جعلها العثمانيون جامعاً)

وقد عهد يوستنيانوس الى الفقيه تريبونين ان يجمع في مجموعتين جميع الشرائع والقوانين الفقهية فوفق يوستنيانوس بفتوحه ومصانعه وقوانينه على مايحب الى ان ينال شهرة مازالت متألقة الى اليوم ولن ينسى عهده · وكانت ايام حكمه تعسة تزوج امرأة وضيعة اسمها تيودورا كانت تدير امره حسب رغبتها وهام جداً بالعاب الفروسية والشعر حتى نسي الحكم فثار الزرق *Les Bleus* ونهبوا عاصمته خمسة ايام واوشكوا يذبحونه فاضطهد اعداءه اي اضطهاد واغلق مدرسة الفلاسفة في آثينا واشتط على الشعب في اقتضاء الضرائب وغضب على قائده بليزير الذي فتح باسمه كل هذه الفتوح

الاعمال التشريعية — اذا كان الامبراطرة لم تبذل لهم الطاعة الا في البلاد التي كان يتكلم فيها باللغة اليونانية فقد ظلوا يكتبون عقودهم الرسمية باللاتينية وبقيت محاكم الامبراطورية تحكم بالقانون الروماني ولكن لم يبق في الامبراطورية منذ القرن الثالث فقهاء قادرون ان يكملوا الحقوق كأن يتفننوا بالزيادة عليها فكانوا يكتفون بتكرار تعاليم فقهاء القرن الثاني والقرن الثالث كايوس واولبين وبول وبابنين ومودستين · وقرر الامبراطرة ايضاً ان يجري عمل القضاة في المستقبل في كل المسائل التي لم يسبق للقانون أن قدر وقوعها فيتبع رأي هؤلاء الفقهاء العظام واذا كان بينهم خلاف يجري على رأي الاكثرية وظلوا ينشرون الاوامر ويبعثون الى حكام الولايات اجوبة على مسائل في الحقوق تكون بمثابة قانون ولها قوته واحكامه · وقد الفوا في القرن الخامس مجموعة من هذه الاوامر الامبراطورية سموها القانون التيودوزي ·

وصحت عزيمة يوستنيانوس على ان يجمع القانون الروماني برمته فعهد الى تريبونين ان يقتطف من اقوال جميع فقهاء الرومان ومن اعمال الامبراطرة ما يتألف منه هذا العمل الذي ندبت به لجنة من الفقهاء اشتغلت نحو عشرين سنة فألفوا ثلاثة تآليف وهي (١) مجموعة الفتاوي (بندكت) مستخرجة من اقوال زهاء خمسمائة فقيه روماني من عصور مختلفة وتقسم الى خمسين كتاباً (٢) قانون يوستنيانوس وهو مجموع الاوامر والتقاليد الصادرة عن الامبراطرة منذ عهد قسطنطين (٣) كتاب الاحكام وهو سفر في الحقوق ألف للطلبة

ثم ان يوستنيانوس جمع في كتاب سماه السنن خلاصة الاوامر الصادرة في عصره وحظر ان يذكر اسم احد من فقهاء الرومان بعد ذلك وبهذا بطل استعمال الكتب القديمة في الفقه الروماني في المحاكم فضاعت الا قليلا ونحن اليوم قلما نعرف شيئا في الحقوق الرومانية الا ما كان من قطع حفظت في مجلة يوستنيانوس ومن اجل هذا طارت شهرة هذه المصنفات

القياصرة والشعب — اصبحت المملكة البيزنطية مع الزمن اشبه بحكومة مطلقة شرقية والامبراطور سيدها يأمر بقتل كل من ينالهم غضبه ويصادر الاموال كما شاء هواه وله السلطة الدينية ينصب الاساقفة ويعزلهم ويحكم في المعتقدات ويضطهد المخالفين . ويحف به كبار الضباط والموظفون والخدم فيتألف منهم بلاط ذو ابهة ويكون لكل من الداخلين فيه رتبة شرف ويقدر كل شيء برسوم دقيقة والقصر يستغرق جميع الاموال التي تجبى من البلاد ولا يذكر في الامبراطورية غير الامبراطور وتقضي الحياة في القصر في معالجة دسائس النساء وبطانة الامبراطور وفي المؤامرات . فمن ١٠٩ امبراطرة تعاقبوا الحكم منذ القرن الرابع الى القرن الخامس عشر ٣٤ فقط ماتوا حتف انوفهم على سررهم و١٢ تنازلوا عن الملك و١٨ ماتوا في السجن و٨ جدعت انوفهم وقطعت ايديهم و٢٠ خنقوا وسموا . وندر ان يخلف الامبراطور ابنه وكل انسان حتى الخادم والصيف تحدثه نفسه بالوصول الى العرش فقد كان الامبراطور انستاز رئيس حجاب وجوستنين رعى الخنازير وفوكاس جنديا بالعرض وكثيرا ما كان يحدث لبعض المتشردين ان تتنبأ له بعض العجائز فتشحذ عزائمهم على تدبير المؤامرات ليصبحوا اباطرة . ويروى ان باردانوس بينما كان فتى وشك الانتقاض دله احد الكهنة على خدمته الثلاثة الذين كانوا يأتونه بفرسه قائلا له ان هذين الاثنين يأتيان بالملك وهذا يبايع ثم يقتل . وهؤلاء الخدم الثلاثة كانوا ليون الخامس وميشل الثاني وتوماس الغاصب ولما كان سلاح الامبراطور في الدفاع عن نفسه التجسس والتعذيب الاليم فقد قطع فوكاس (٦٠٣ — ٦٨٠) السنة انصار سلفه وفقأ عيونهم وقطع ايديهم وارجلهم وكان الامبراطور يغمر بهم بالسهام او يحرقهم بالنار وكثيرا ما كانت تجري هذه العقوبات الشديدة على رؤوس الاشهاد . وقد شهد الامبراطور يوستنيانوس الثاني وهو مجدوع الانف مشهد الالعاب ورجلاه على رأس منافسيه في العرش ثم امر بهما فاعدما . ووضع باسيل اعداءه المجذومين المظلومين في الساحة العامة قابضا بيده مجرة فيها كبريت كان

يجر بها بعضهم بعضاً ثم اضطرهم لثلاثة ايام ان يحتذوا وعيونهم مفقوءة ويد كل منهم مقطوعة .

الجيش — لم تزل في الولايات سلطة غير سلطة الجيوش يجندون من المتشردين من اهل كل الولايات التي يدرجها عليهم الامبراطور وفيهم الاروام والفرس والعرب والارمن والصقالبة بل والفرنج والنورمانديون وكان معظمهم فرساناً لا يؤدون الضرائب ويملكون اراضي وقد دعاهم الصليبيون الفرنسويون في القرن الثالث عشر الفرسان والشرفاء وبطلت طريقة الحكام المدنيين في الولايات وسط الحروب فكل قائد جيش يحكم في منطقة ولايته وبعضهم ينقطعون عن كل صلة مع العاصمة فيدفعون عن انفسهم بحسب ما يتراءى لهم فكانت مناطق كالابرا وصقلية مثلاً مستقلة حقيقة

المجاميع — حفظت القسطنطينية خزائن كتب مملوءة بنفائس قديمة وكانت فيها مدارس يتخرج فيها كل من يطمعون في تولي المناصب ويقضى على الموظفين في الدولة البيزنطية ان يكونوا أدباء كما هو شأن حكام الصين ويدرس الاساتذة من الكهنة الا قليلاً علوم الدين والشريعة والرياضيات والنحو وكان معظمهم ملماً بجميع علوم عصره . ولم يكن الادباء البيزنطية يحاولون ان يأتوا باعمال مبتكرة بل كانوا يستقطون الى التآليف القديمة فيقتبسون منها ويجمعونه في مصنفاتهم . فقد ألف فوتيوس في القرن التاسع كتاباً سماه « عشرة آلاف مصنف » ووضع سيمون المترجم وهو قائد سياسي من اهل القرن العاشر مجموعة جامعة في حياة القديسين وجمع الامبراطور قسطنطين البورفيروجنتي مجموعاً عاماً . وكان البيزنطيون يرجون ان يضموا في بضعة مصنفات شتات عامة علوم القدماء وهو عمل متكبرين لا عمل عاملين ولكن عملهم حفظ شذوراً من اسفار ضائعة قديمة

الصنائع البيزنطية — ملأت الامبراطورية البيزنطية خلال القرون الوسطى باسرها تشيّد كنائس وقصوراً وتزينها وكان المتفننون بالصناعات كثيراً عددهم ولا سيما في بلاط بيزنطية وفي الاديار بين الكهنة والقسيسين . واعظم الصناعات البيزنطية الهندسة واهم مصانعها كنيسة اياصوفيا في القسطنطينية أنشئت في عهد يوستنيانوس وحافظ عليها العثمانيون وحولوها جامعاً

وتتألف الكنيسة البيزنطية من قبة كبيرة يعلو فيها قباب صغرى يدخل منها النور وتحيط بالقبة الكبرى عدة قباب او نصف قباب صغرى وجميع هذه القباب مذهبة

من الخارج وتتألق انوارها الى بعيد وفي الداخل ترى السواري من الرخام الثمين كاليشب والسماقي وكلها ذات خطوط حمر وخضر وارضها مبلطة بالفسيفساء المتألقة والحوائط مزدانة بصور مرصعة بالذهب . يريدون من هذا التفنن اظهار الغنى . وغدت هذه الكنائس ذات القباب المستديرة والمذهبة انموذجاً للمهندسين منذ القرن السادس الى القرن الحادي عشر لا في الامبراطورية البيزنطية فقط بل عند جميع البرابرة المسيحيين في الشرق . و بقيت هذه اليوم في المشرق مثال الهندسة النصرانية وجماع الكنائس الروسية كنائس بيزنطية .

وما النقش والتصوير مثل ما كان قديماً في مصر واشور سوى صناعات ثانوية من شأنها تزيين اعمال الهندسة وتمثل صور الجدران صفوفاً طويلة من القديسين او احتفالات كهنوتية والاشخاص منفصلة عن التذهيب فيها جفاء وهي على نسق واحد وعيونها واسعة الاحداق واجسامها مقرنة لا معنى لها ولا حياة فيها وكذلك تماثيل القديسين ينتقد عليها ما ينتقد على صور الاشخاص وقد انقطع ارباب الصنائع عن صنع النقوش والتصاوير الطبيعية واكتفوا بنقل نموذجات مقررة مبتعدين عن الحقيقة كما كثر النقل والاحتذاء .

حفظت في المملكة البيزنطية ايضاً جميع اعمال الزينة كالنقش على الخشب او العاج وصناعة الحلي والزمرد وتذهيب المخطوطات . ودام ارباب الصناعة من البيزنطيين مدة خمسة قرون من القرن السادس الى القرن الحادي عشر مستأثرين بصنع ما يحتاجه الملوك والاساقفة ورؤساء الاديار من البربر في غاليا وجرمانيا يعملون لهم زين البيع وبيوت الذخائر والكؤوس والعروش والتيجان والمخطوطات الثمينة وكان اذا تخرج اناس في الصناعة ببلاد الغرب يبدأون باحتذاء مثال الكنائس البيزنطية

كنيسة الشرق — لم تشأ الكنائس النصرانية في الشرق ان تخضع للبابا في رومية بل كانت ترجع الى اساقفة المدن الكبرى (القسطنطينية والقدس وانطاكية والاسكندرية) يدعونهم بطاركة وفوقهم الامبراطور رئيس الكنيسة وهو ملك على الاجسام كما هو ملك على الارواح على نحو ما هو حال قيصر روسيا الى اليوم بل هو المرجع في حسم المسائل الاعتقادية

وقد اصدر زينون سنة ٤٨٢ في الجدال الذي ثار بشأن مسألة طبيعتي المسيح امراً قاضياً على الفريقين ان يقبلا بقانون عام وبعد مئة وخمسين سنة من هذا التاريخ والمسيحيون

في الشؤون فيما اذا كانت للمسيح طبيعة واحدة او طبيعتان اصدر هرقل أكثيس سنة ٦٣٩ أمراً يقضي بان للمسيح طبيعتين ولكن له ارادة واحدة فنشأت من ذلك بدعة جديدة وانقسمت كنيسة الشرق الى عدة شيع فكان النساطرة يقولون بان للمسيح طبيعتين الاولى الهية والثانية بشرية وان العذراء ليست أم الاله بل أم المسيح وأما الكنيسة الكاثوليكية فحسبوا زعمهم في باطل . وقال القائلون بطبيعة واحدة في المسيح انه ليس فيه من الطبائع الا الطبيعة الالهية وهؤلاء أسسوا كنائس مصر والحبشة وسورية (تحت اسم اليعاقبة) والقائلون بمشيئة واحدة في المسيح اعتقدوا بان له طبيعتين وارادة واحدة ولا يزال الموارنة في جبال لبنان يعتقدون المذهب

ثم انفصلت الكنيسة الارثوذكسية في القسطنطينية وجنوب آسيا الصغرى وأوربا ولم يتيسر لها ان تظل مرتبطة بكنيسة الغرب والكنائس مختلفة في عدة مسائل فالغربيون لم يقبلوا زواج القسس ولا عبادة الصور وزادوا الى عقيدة الحلفاء التي قيلت في مجمع نيقية « الروح القدس منبثق من الآب » قولهم « من الابن ايضاً » ولم يرض احد الفريقين ان يتنازل عن دعواه وعند دعاوي الامبراطور من رومية كان يعترف البابا والسلطة ايطاليا بامبراطور القسطنطينية عملا عليهم ولكن لم يعترفوا بان تحكم الامبراطورية في الكنيسة وان تقضي مسائل الايمان والقوانين . فاصبحت الصلات نادرة ومتنافرة بين البابا والمشارقة ثم جاء امبراطور من القائلين بتحطيم الصور فامر سنة ٧٢٦ بان لا يكون في البيع اي تمثال لتماثيل المسيح ولا العذراء ولا القديسين وان تحطم التماثيل ومن اكبر الصور الحرص البابا جماعة المؤمنين الرافضين لهذا الفكر وشعب القائلين بتحطيم الصور ولما انتخب شارلمان (كارل) امبراطوراً في الغرب انقطعت كل صلة بين رومية والشرقيين

ولم تبق الكنيسة الرومية محصورة في الامبراطورية البيزنطية بل بعثت برسلها لتنصير البربر الصقالبة في اوربا الشرقية كما نصر مرسلو رومية برابرة الجرمان وسائر اوربا الغربية فكما عد الجرمان في الثلاثة والكثلكة كاثوليكاً رومانيين اصبح السلافيون (الصقالبة) في روسيا وبلغاريا كاثوليكاً روميين وما زال هؤلاء كذلك وتسمى الكنيسة الرومية (وهي التي تلقبها الارثوذكسية) وعدد التابعين لها نحو ٨٠ الى ٩٠ مليوناً .

مملكة الامبراطورية البيزنطية — جرت عادة المؤرخين عند كلامهم على البيزنطيين

ان يطلقوا عليهم عبارات الاحتقار . نعم ان روايات مؤرخيهم تشعر بان هناك شعباً خاملاً نذلاً فاسداً ولكن لم يبق غيرهم باقين على شيء من مدنية بجانب الغرب الذي عاد فاصبح بربرياً لهم الذين حفظوا الحضارة القديمة ونقلوها الى امم اوربا الحديثة وبذلك شغلوا مكانة عالية في تاريخ العالم المتمدن واليك ماأتوه من الاعمال على سبيل الايجاز :

١ حفظوا من التشذيب القوانين الرومانية التي لاتزال في كثير من الموضوعات القاعدة التي تجري عليها الشعوب المتمدنة

٢ انقذوا صناعات يونان القديمة وكانت تضيع آثار كتاب اليونان لولا المخطوطات التي حفظها أدباء القسطنطينية وكهنتها فالبيزنطيون كانوا خزنة كتب الجنس البشري .

٣ انشأوا صورة عظمى من صور الصناعة وعلى الاقل في الهندسة وهي بذلك الصناعة البيزنطية

٤ أسسوا كنيسة نصرانية نصرت العالم السلافي تقريباً

٥ قدمت الشعوب البربرية في اوربا الشرقية مثالاً من امثلة المدنية ولا سيما الروس فانهم طالما اعجبوا ببيزنطية وأخذوا مثالها وما البيع الروسية الا كنائس بيزنطية والفباء اللغة الروسية مؤلفة من حروف يونانية والدين الروسي هو الكثلكة الرومية حتى ان اسماء العماد يونانية (اسكندر . ميخائيل . باسيل . حنة) واخذ الشعب الروسي (وهو اليوم يناهز المئة مليون نفس) دع عنك الصربيين والبلغاريين عن بيزنطية كتابته وديانته وصنائعه . وعلى الجملة فقد كان البيزنطيون معلمي الصقالبة كما كان الرومان معلمي الجرمان .

مملكة العرب

الخلافة

الخلفاء — فتح الغازون العرب في اقل من قرن (٦٣٠ — ٧١٣) بلاد آسيا حتى بلغوا نهر السند وجميع افريقية الشمالية واسبانيا وخضعت البلاد التي فتحت للخليفة زعيمهم امير المؤمنين خليفة الرسول واقام الخليفة اولاً في المدينة المنورة مدينة الرسول (٦٣٠ — ٦٦٠) ثم في دمشق (٦٦٠ — ٧٥٠) ثم في بغداد على عهد العباسيين وعند ذلك تجزأت المملكة فصار الخلفاء ثلاثة في ثلاث عواصم : بغداد في آسيا والقاهرة

في افريقية وقرطبة في اسبانيا دع عنك الولايات المتقطعة (مثل خراسان ومراكش) التي لم تكن تخضع لخليفة قط .

والقاعدة أن ينتخب المؤمنون الخليفة بأمر من الله . قال يزيد الناقص عند ما بويع له : أيها الناس إني أعاهدكم أن لا أقيم قصراً ولا أجمع من حطام الدنيا فإذا وفيت بوعدي فعليكم أن تبذلوا لي طاعتكم وتدافعوا عني بأنفسكم وإلا فأنتم في حل من بيعتي ولكن عليكم أن تذكروني أولاً فإذا صلحت فاقبلوا معاذيري وإذا عرفتم برجل أجدر بالخلافة يقوم لكم بما أقوم به فاختاروه وأنا أخضع له . وفي الواقع فإن انتخاب الخليفة كان حراً خالصاً فتختار الأمة الخلف الذي يعينه الخليفة السابق أو رؤساء القواد حيث قصر الخليفة .

الحكومة — كانت الحكومة ساذجة للغاية ، موروثة خلفاً عن سلف وعلى الخليفة كل جمعة أن يصعد المنبر ويخطب الناس ويعظهم ثم تركت هذه العادة وكان عليه أن يستقبل القوم جالساً على عرش يحف به ذوو قرباه والناظر دونه . ولكن الخليفة اعتاد جعل له وزيراً يكون خادماً دون أن يزاول بنفسه بخلفه ويحمله ويلاعبه بالبريد ويدعوه سيد الملك . وهو أيضاً يقضي وقته في قصوره أو حدائقه بين نسائه يحف به حرس من الجند المأجور من الأجانب (ويدعونهم الخرس لأنهم لا يتكلمون العربية)

وكان لكل ولاية قائد لجيشها يحكمها وكثيراً ما ينتهي الخليفة ، وفي كل حاضرة قاض يقضي بين المسلمين في أمر وجيه بدون كتابة ولا مماطلة وذلك بمراعاة أحكام القرآن والعدل . ويقال عدل قاض يريدون به العدل الموجز . وكانت العرب كالرومان يتركون الشعوب الخاضعة لهم تتمتع بحقوقهم ومحاكمهم إلى أساقفتهم (وكان في خلافة بغداد وحدها ٢٠ أسقفاً مطراناً) ويتركون المسيحيين يقومون كما يشاؤون بشعائرهم الدينية مكتفين منهم بتأدية الجزية فقط وأن يحترموا المسلمين وأن لا يحملوا السيف ولا يمتطوا الخيل ولا يقرعوا نواقيسهم كثيراً ولا يتلون صلواتهم بصوت جهوري .

المذاهب — لما كان بين الشعوب المختلفة التي دانت بالإسلام كثير من الاختلاف في الأخلاق لا يتأتى معه أن يقوموا بواجباتهم على مثال واحد انقسموا إلى عدة مذاهب فقسماء المؤمنين في العادة ولا سيما العرب منهم يؤمنون مع القرآن بأحاديث الرسول وما أثر عن أصحابه وآله فيميزون الكتاب بالسنة ومنه اشتق اسمهم أهل السنة . لا جرم أن هذه الأحاديث التي بلغت بسائق سرعة التصديق المعهودة في الشرقيين

لا يرد عهدها الى محمد (فقد اقر احد الوضاعين الذي قتل سنة ٧٧٢ بانه وضع ٤٠٠٠ حديث) ولكنها مع ذلك من اصل عربي . اما المذهب الشيعي فهذا قد تألف بعد مقتل علي فابى اهله الاعتراف بخلفاء الأمويين في سورية ونبذوا الحديث وزعموا انهم يتمسكون بالقرآن فقط والعرب يلقبون في الابان هؤلاء المخالفين شيعة او رافضة وكان معظمهم قد اسلموا حديثاً واكثرهم من الفرس فمزجوا الاسلام ببقايا دين زردشت القديم وادخلوا فيه حكايات واحتفالات ومعتقدات تكرهها العرب وجعل اكثرهم استنارة بكثرة تفسير القرآن الصفة مجازية من الدين مثل صوفية الفرس حتى لقد شبهوا هؤلاء بالاباحيين وكان من امر السواد الاعظم كرهاً بالأمويين ان اتخذ من اخلاف علي ختن الرسول آل بيت الهي وقالوا ان الخليفة غاصب والزعيم الحقيقي هو الامام من آل بيت علي وفيه السر الالهي وهكذا جاء اثنا عشر اماماً عاشوا خاملين في المدينة ثم انقرض آل البيت فكانوا يتوقعون زمناً خروج الثاني عشر وهو محمد من مغارة بالقرب من بغداد حيث كان مختبئاً على مايقولون ومنذ ذلك العهد اخذوا ينتظرون اماماً يأتي ذات يوم لمقاومة الشر بمعونة عيسى ويلقي السلام على الارض وفي كل مساء يضرعون اليه ان يظهر قائلين عجّل لنا ايها الامام فان الانسانية في انتظارك لان الحق والعدل هلكا والارض ملئت جوراً وظلماً . وهذا المسيح يسمونه المهدي (اي الرجل الذي يسوقه الله) وقد ظهر كثير من المهديين منذ القرن العاشر ولاسيما بين مسلمي افريقية وانشأ احدهم خلافة في القاهرة وأسس آخر دولة الموحدين في مراكش وقام لعهدنا مهدي جديد آخر في السودان (١٨٨٤)

المدنية العربية

منشأ المدنية العربية — كان الاسلام كالنصرانية مباحاً الدخول فيه لكل انسان اذا اسلم المغلوب يدخل في زمرة المؤمنين وكانت العرب الخلص في الصدر الاول التي تدعو انفسها السود تحتقر هؤلاء الداخلين في الاسلام المدعوين بحمر السبال ولكن الخلفاء وضعوا مبدأ المساواة قال عمر من الظلم ان يحتقر المرء اخاه المسلم . وقد اخذ الروم والفرس ممن دخلوا في الاسلام او ظلوا على دينهم وهم اعرق في المدنية يتكلمون بالعربية ومزجوا عاداتهم بعادات الفاتحين وخرج العرب متوحشين من قفارهم فتحضروا كما كان شأن الرومان قديماً وراحوا يمدنون الشعوب البربر التي ما زالت على توحشها في افريقية كما مدنت رومية بربر اسبانيا وغاليا

بغداد وقرطبة — هذه المدنية العربية التي نشأت في الشام وفارس هي شرقية

محفة فقد اقتدى خلفاء دمشق بملوك فارس فكانوا يأوون الى القصور المبلطة بالرخام الاخضر وفي وسط الفناء حوض عظيم يفيض الى بستان حديقة غاصة بالاطيار وحوله عبيده يغنون فيشربون شرابا بماء الورد وكانت العاصمتان اللتان اسسهما الخلفاء وهما بغداد وقرطبة احسن حالة فان بغداد مدينة العجائب أنشئت في بضع سنين وكان لها اربعة ابواب من حديد تحيط بها قبة مذهبة وكان على الداخل للوصول الى القصر ان يجتاز ثلاثة ميادين وثلاثة ابواب وكان القصر مدينة مغلقة وسط المدينة . وفي ردهة الاستقبال شجرة ذهب اغصانها الاحجار الثمينة واسود مقيدة واحواض ومياه مثلجة ترطب الهواء وكان لخلفاء القاهرة حديقة اشجارها من ذهب وازهارها من الجوهر وبلاطها من الزمرد . قالوا انه كان في قرطبة في القرن العاشر مئة الف دار وستمائة جامع وثمانون مدرسة وثلثمائة حمام وثمانية وعشرون ربضاً . وقد سمت الراهبة هروسويتا الالمانية مدينة قرطبة بجوهرة العالم وكان الخليفة في قرطبة كما في بغداد يستدعي الشعراء والمغنين ويهبهم ملء حقائبهم من الذهب . وللاغنياء التجار ايضاً حدائق مملوءة بالزهور والاشجار العطرة والبسط الفاخرة واقمشة الحرير وآنية الفضة وطيوب بلاد العرب التي يحرقونها في مجامر ذهب . وهكذا بذخ الشرقي يرغب في الثمين الفاخر اكثر من رغبته في الموافق السهل .

الزراعة — من اول واجبات الحكومة ان تفتح الترع اللازمة لزراعة الارض . وهذه كانت قاعدة امراء العرب التي جروا عليها وحفروا الآبار وحفزوا من عثروا على الينابيع بالمال ووضعوا المصطلحات لتوزيع الماء بين الجيران فان مصر والشام وبابل وهي من البلاد الحارة التي تخصب واي خصب عندما يسقونها قد علمت العرب قيمة الماء وطريقة الانتفاع به فنقلوا الى اسبانيا صنوف النواعير التي تمتح الماء والسواقي التي توزعه . وان الهورتا في ضواحي بلنسية وهو سهل مزروع كما تزرع الحديقة هو بقايا حكومة العرب وديوان المياه الذي كان يفض مسائل السقيا نظمه العرب

وقد استعمل العرب جميع انواع الزراعة التي وجدوها في ممالكهم وحملت كثيراً من النباتات الى صقلية واسبانيا ومنها الى اوربا فاحسنوا تربيتها حتى تطبعت وطنية وذلك مثل الارز والزعفران والقنب والمشمش والبرتقال والكباد والعسل والليمون والبطيخ الاصفر والعنب المعطر والورد الازرق والاصفر والياسمين بل والقطن والقصب وقد دخل هذان الصنفان منذ اكتشاف اميركا

الصناعة — وجدت العرب في الشام وفارس صناعات قديمة نقلت الى جميع البلاد الاسلامية فتكملت ومنها نشأت صناعة اوربا الحديثة . وكانوا يعملون في معامل الزجاج في بغداد والشام زجاجاً معمولاً بالياقوت والصدف وتخرج من معامل الاسلحة العربية الفولاذ العجمي والبلطات الحديدية في البصرة والسيوف في اليمن ثم أخذت سورية تصنع النصال الدمشقية المشهورة واسبانيا السيوف المسقية في طليطلة . ويحوكون في جبال آسيا الصغرى السجاد من صوف ذي وبر . وفي دمشق قماش الدمسكو واقمشة القصب واقمشة الحرير والصوف الدقيقة ويصنع الشاش في الموصل . وقد انتقلت الرسوم العجمية التي كانت تزدان بها هذه الاقمشة من طيور وفيلة واسود وحيوانات ونباتات يقابلونها (ويرد عهد بعضها الى الاشوريين) الى تزييناتنا الحديثة وكان عمل الورق في سمرقند وبغداد منذ القرن العاشر وربما قلدوا في صنعه الصينيين ومن هاتين العاصمتين انتقلت صناعة الورق الى صقلية وكساتيفا (؟) Xativa في اسبانيا . وكانت في العرب معامل الجلد الشهيرة وهي مثل الجلد القرطبي (الكوردواني) نسبة لقرطبة (ومن هنا اشتق بالافرنجية اسم كوردونية اي صانع احذية) كما يصنع السختيان (الماروكين) نسبة لمراكش . ويعمل في بغداد السكر الذي كان اخترع في بلاد الفرس وكانت العرب تحسن عمل المربيات والاشربة والجوز الناشفة وروح الورد

التجارة — عاش الشعوب في بلاد العرب الواسعة كما كانت الحال على عهد الرومان من اقصى المملكة الى اقصاها بسلام وراحة يتقايضون حاصلات ارضهم ومصنوعات معاملهم ويرحلون الى الهند والصين يبتاعون مصنوعات الامم الصناعية يحملونها الى الشعوب البربرية في اوربا وكانت البضائع تنقل في البحار على مراكب وفي البر على ظهور الجمال وللعرب مرفآن تجاريان عظيمان متصلان بالعاصمتين احدهما البصرة على خليج فارس كان يفتح للعرب بحر الهند وهناك تفرغ مراكب العرب وهي قادمة من الهند تحمل العطور والافاويه والعاج وتجيء الجنوك الصينية تحمل جميع صنوف المسك والحرير وتعود بالزجاج والسكر وماء الورد والقطن . والاسكندرية هي المرفأ الثاني فتحت على العرب طريق البحر الرومي واليه كانت تصل مراكب ايطاليا فالبصرة مرفأ بغداد والاسكندرية مرفأ القاهرة

وتسير القوافل من بغداد الى كل ناحية فمن الجنوب الغربي تقصد الى دمشق وسورية والى الشرق نحو البصرة والهند ومن الشمال الى طربزون على البحر الاسود

حيث كانت تتصل بأسواق المملكة البيزنطية والى الشمال الشرقي الى سمرقند وبحر الخزر حيث كان يذهب التجار ليأخذوا جلود روسيا وشمعها وعنبرها . وكانت القوافل من القاهرة تسير الى الغرب في الطريق العظيم الذي يحاذي البحر على طوله ماراً بطرابلس والقيروان ليفضي الى طنجة التي كانت تصل اليها تجارة اسبانيا ومن الجنوب طريق يصعد منها الى النيل حتى بلاد السودان وآخر يسير في الشاطىء الشرقي من افريقية حيث انشأت العرب مقديشو وكلوة وسفالة . ومن هذه الجهة كان يجيء التبر والعاج والعبيد . وكان في جميع المدن العظمى كبغداد والقاهرة ودمشق والقيروان وطنجة وقرطبة وسمرقند حي التجارة (البازار) يعرض فيه التجار امتعتهم ويتفقون على الاسعار

العلوم — يقول المثل العربي من سار في طلب العلم سهل الله له طريق الجنة وكثير في الرجال من ساحوا اشهراً في طلب حديث روي عن الرسول وبالحقيقة ان المسلم يعنى عناية خاصة بعلم الكتاب وفي البلاد الاسلامية كما في البلاد المسيحية يفضلون تعلم الفقه . فقد كان الطالب في مدارس قرطبة يقضي اربع سنين في تعلم قراءة القرآن وثماني سنين في حفظه ثم يتعلمون الكتابة وهكذا كان يتخرج العلماء وهم علماء في الفقه والكلام اذ ليس القرآن قانوناً دينياً فقط بل هو قانون مدني . ومن دراسة تراكيب القرآن نشأ علم النحو ومازال المسلمون يؤثرون من العلوم الكلام والفقه والنحو وكان في الحواضر مدارس يجتمع اليها من يرغبون في التعلم او التعليم وهؤلاء الاساتذة المرتجلون كانوا يلقون دروسهم مجاناً بدون مقابل او لقاء رواتب يدفعها اليهم الحضور . وأنشئت في القرن العاشر في بغداد ودمشق وسمرقند مدارس كلية حقيقية تدفع الحكومة رواتبهم

وحفظت في مدارس الروم في دمشق والاسكندرية علوم الروم من فلك وجغرافيا ورياضيات وطب فجمع علماء الامبراطورية البيزنطية رومهم وعربهم وفرسهم هذه العلوم واكملوها ونشروها (١) ولقد كتب احد علماء العرب اول كتاب في الجبر ترجم الى اللاتينية ووصف جغرافيو العرب البلاد البعيدة التي كانت القوافل تختلف اليها .

---

(١) لما وقف احد العلماء اليوم يعرفون ما كان من علم في الامبراطورية البيزنطية فقد ادركوا بانه يجب ان يحذف كثير من الاختراعات التي نسبت للعرب كما ابان ذلك مؤخراً الشهير برتلو في علم الكيمياء (كتاب اصول الكيمياء)

واستخرجت العرب من كتب الطب اليوناني الطب التجريبي الذي كان المعول عليه في القرون الوسطى وهو طب العقاقير والحبوب وكانوا كاليونان يبحثون عن دواء يشفي من كل الاوصاب ولكن اهم ما طلب اهل العرب من القدم علم الكيمياء وكان يجذبهم اليه امران مرغبان اهل الشرق وهما العثور على حجر الفلاسفة الذي يحول جميع المعادن الى ذهب والاكسير الذي يعطي الحياة ويعيد الشباب وكانوا يحاولون اخراجها بمزج كل مادة واغلائها وتقطيرها فوقع الكيماويون في ايديهم وادوات استخراجهم ما لم يكونوا يبحثون عنه بدلاً من الاكسير حصل معهم الالكحول (١٦٦٩) ثم بعد زمن بينما كانوا يبحثون عن حجر الفلاسفة وجدوا في المانيا الفوسفور . وظلت الكيمياء وهماً ولكن نشأت منها الكيمياء الحديثة كما نشأ قديماً من بلاد الكلدان علم الفلك من علم التنجيم .

فنون العرب — لم يكن للعرب كالرومان صناعات وطنية خاصة بهم فكانوا اذا احتاجوا الى قصور او جوامع يعمرونها اولاً على الطرز الفارسي او البيزنطي مثل جامع دمشق ولكن لم تلبث الصناعات الفارسية والبيزنطية ان اختلطت ونشأ منها صناعة جديدة هي الصناعة العربية واجمل هذه الصناعات (١) الجوامع والقصور والجامع عبارة عن قاعة كبرى يجتمع فيها المؤمنون وفي الفناء حوض ماء يتوضأون منه ومأذنة تنتهي بسطح ومنه ينادي المؤذن المؤمنين للصلاة وكانت القاعة العظمى في قرطبة تنقسم الى احد عشر صفاً من السواري والقصر العربي هو بيت نزهة يكون بحسب عادة البلاد الحارة ولا يبدو منه من الخارج الا حوائط عارية . والقاعات كما في الدور القديمة متجهة نحو فناء (صحن) داخلي مغروس بالاشجار ويرطب هواءه حوض ماء وفي صحن الاسود في قصر الحمراء في غرناطة ينبجس الماء من كأس عظيمة من الرخام الابيض يحملها اثنا عشر اسداً من الرخام الاسود والفناء يحيط به من الشواطيء سوار يتألف منها رواق والسواري العربية رقيقة عالية على مثال الهندسة الفارسية فلا تحمل الا حوائط رقيقة خفيفة من الجبس او الملاط والقناطر التي تجمع بين السواري هي على شكل رسم

---

(١) تكاد تكون المعاهد العربية بأسرها معمولة من القرميد والخشب ولذلك انهدمت او هدمت . ولم يبق منها الآن الا جامع مصر والجامع الاعظم في قرطبة من القرن الثامن البرج المربع La Giralda في اشبيلية وجنة العريف La Generalife والحمراء في غرناطة من القرن الثالث عشر .

البيكارين وهلال او قرن فهي هندسة خفيفة جميلة مربعة القطع كأنما اصحاب كتاب بالمقوى . وليس للعرب نقش ولا تصوير لان القرآن حرم عليهم تمثيل الاشخاص فبدلا من التماثيل والصور تصوروا ان يصوروا الخطوط بالوان زاهية واكاليل من الزهر والورق وآيات من القرآن والشكل هندسية متشابكة وهذه الزين التي اصبحت في الدهر مختلطة مرتبكة لا اصل لها الا في خيال راسميها قد حفظت اسماء مخترعيها فقالوا عنها ارابسك اي النقوش على هيئة النباتات والاوراق

مخطوطات ومطبوعات

المجموع المشتمل على الدرر

كما قيض الله سبحانه رجالا في الهند لنشر مذهب السلف بطبع كتب الحديث وسننه ومسانيده واجزائه وكتب عقيدتهم الصحيحة كذلك اتاح لذلك رجالاً من البحرين ومصر وجدة لا يألون جهداً في السعي وراء احياء آثار السلف ونبشها من مراقد الاهمال الذي قضى عليها ضعف العلم في العصور الاخيرة

ومنهم الشيخ عبد القادر التلمساني الاصل نزيل مصر فقد طبع في مصر الصارم المنكي ، والكافية الشافية ، وكتاب الفرقان بين اولياء الرحمن واولياء الشيطان ، وجزء رفع اليدين ، وجزء القراءة خلف الامام ، وغاية الاماني وآخر ما نشره مجموعة كتب من الطف الكتب وانفسها يود كل مغرم بالعلم ان يقف عليها ويتمتع بفوائدها

اشتمل هذا المجموع — الذي طبع في مطبعة كردستان باجمل ورق والطف حرف — على تسعة مؤلفات (الاول) كتاب الرد الوافر على من زعم ان من سمى ابن تيمية شيخ الاسلام كافر للامام حافظ الشام ناصر السنة محمد بن ابي بكر المعروف بابن ناصر الدين الشافعي المتوفى عام (٨٤٢) جاء كتابه هذا في (١٣٦) ص من القطع الكامل افتتح خطبة كتابه بما ورد في اتباع السنة واجتناب البدعة ثم نعى على المكفرين والمضللين وان كل هؤلاء ركب هواه ، فابتدع مذاهب وارتضاه ، وخطأ اهل الحق عليه ، ودعاهم عليه اليه ، وزخرف لهم القول بالباطل فتزين به وصار ذلك عندهم ديناً يكفر من خالفه ، ويلعن من باينه ، وساعده على ذلك من لا علم له من الهواء ، ويوقع به الفتنة